عزالدين ميهوبي

إعترافات تام سيتي 2039

2 ـ عين الزانة

رواية
ROMAN

عنوان الكتاب : إعترافات تام سيتي 2039

عنوان الجزء : 2. عين الزانة

النوع : رواية

المؤلف : عز الدين ميهوبي

الطبعة الأولى : ديسمبر 2007

المطبعة : دار ثالة

الناشر : منشورات ثالة - الجزائر

تصميم الغلاف و الإخراج الفني: خالد بوزنون

- الإيـداع القانوني :

- ردمـــك : 978 .. 9947 .. 834 .. 25 .. 1

البريد الإلكتروني للمـــؤلف
azzedinehodni@gmail.com

الموقع الإلكتروني للمـــؤلف
www.azzedinemihoubi.com

© حقوق الطبع محفوظة لمنشورات ثالة ... الأبيار ـ الجزائر

طبع هذا الكتاب في إطار تظاهرة (الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007) .

1

المكان: تام سيتي
التاريخ: 1 يناير 2040
الساعة: 6.37 صباحا

فتحت دفتر الرجل الأنيق، ورحت أقلب الصفحات الأولى، فلم يكن بها سوى عدد من صور شارل دي فوكو بلباس الرهبان. وفي الصفحة الثالثة عشرة، كتب بحروف عربية "بسم الله الرحمن الرحيم"، وبقية المخطوط كلها كتبت باللغة الفرنسية.

ولفت انتباهي اختيار صاحب المخطوط فقرة وردت على لسان دي فوكو يكررها في كل صفحة نصها كالتالي "فكّر أنك ستموت شهيدا. مسلوبا من كل شيء، ممددا على الأرض، عريانا، مشوها مضرجا بالدم والجروح، مقتولا بعنف وضراوة.. وتُق إلى أن يتم كل ذلك".

لم أفكر في قراءة نص المخطوط أول الأمر، لأنني خشيت أن يظهر صاحبه، وما كان علي أن أطلع على

أسراره، ولو كانت كلاما لا معنى له. وعندما قلبت الصفحة الخامسة عشرة، بدأ الصفحة بما يلي:
إسمي أنطوان مالو، ولدت في 12 ديسمبر 1953 بمدينة أميان بفرنسا...
قلت في نفسي إنه الرجل الذي وجدته ميتا في قاعة الاعتراف.. وما دام الرجل في ذمة مولاه، فما الذي يمنعني من قراءة المخطوط، فربما ترك وصية أو أمرا يمكن تبليغه لذويه.

انزويت في ردهة قاعة الإسعاف وأغلقت المخطوط. وبقيت أتأمل الوجوه الغادية والرائحة في أروقة وبهو المستشفى، ولا تسمع منها سوى أسكرام بالاس.

أسلمت نفسي للنوم قليلا، وامتدت إلي هواجس وكوابيس، لم أستعد منها سوى غربان تحوم حول بئر لا ماء فيها، وامرأة نصفها الأسفل يغطيه ريش أبيض وقليل من السواد. وكنت أجري في العراء وأصرخ أسكرام .. أسكرام.. أسكرام.
ولم أفق إلا على السائق محمود وهو يدفعني بيده:
- سي محمد.. سي محمد.. الساعة التاسعة ونصف.
قمت فزعا. ابتسم وقال لي وكأنه لا يأبه لما كنت فيه من تعب وإرهاق.
- هذي أختي مريم..
- مرحبا. ونظرت إلى ملامح وجهها، وكأنني أسعى لأن أرى فيها تين أمود. لم تكن تشبهها قط.

ولم يتوقف محمود عن الكلام، وكأنه ابتلع شريطا مسجلا عليه روايات الليبي إبراهيم الكوني الذي أقام له التوارق تمثالا في مدينة جانت لأنه كتب عنهم أعمالا كثيرة. عني أنا، لم أقرأ منها شيئا لكنني

شاهدت فيلما سينمائيا اسمه "المجوس" مأخوذا من بعض أعماله الروائية. قال محمود:

- قلت فرصة لأعرفك عليها، زوجها..
- قلت لي إنه شرطي. قاطعته، لكنه استمر.
- يشتغل في أباليسا منذ ثلاث سنوات، ولهما ثلاثة أطفال ذكور وبنت تدرس الطب في عنابة.
- وأنت؟ قلت له وأنا أرى ابتسامة عريضة من اخته.
- أنا.. لا شيء، أعيش داخل سيارة إسعاف، لا دار لا دوار، لا امرأة، ولا أولاد.. بعد أربعين عاما هل يمكن للانسان أن يكون زوجا في رأيك.
- لا أدري. لأنني مثلك، إنما الفرق بيننا أن لي أربعة جدران، ومن أنقذهم أنا، تسعفهم أنت.

لم أسمع صوت الممرضة، أخت محمود، كانت تكتفي بابتسامة، سألتها:

- أما زال الدكتور يحي اسماعيل في مصلحة الأمراض الصدرية؟
- هو مسؤولي المباشر..
- تعرفت إليه أيام الوباء الذي تعرضت له قرية قريبة من عين قزام. رجل طيب.
- صحيح.. لهذا لم يقم بيتا وأولادا مثلكما، أنت ومحمود.
- قدر الطيبين أن يعيشوا كالأنبياء، ويموتوا كالجرذان.

قلت لمحمود، وأنا أقف ببطء، فقد شعرت بإعياء كبير.

- هل يمكنك أن تأخذني إلى البيت.

- هذه وظيفة محمود TGV.
واستدرت إلى الممرضة.
- بلغي سي يحي سلامي.. قولي له صالح النازا وسيفهم كل شيء.
ولم تمض سوى دقائق حتى وجدت نفسي أمام البيت، بينما اختفى محمود عن نظري. كان مستعجلا، ذاك طبعه.
غسلت وجهي، وأعددت قهوة سريعة، وأنا أتابع أخبار الحريق الذي التهم أسكرام بالاس.
حصيلة نهائية أوردتها المصالح الطبية لتام سيتي، تمثلت في موت تسعة من نزلاء الفندق وجرح مائة وثمانية وستين نزيلا. وأما مدير الفندق هوسمان فما يزال فاقدا للوعي بإحدى عيادات الجزائر العاصمة المختصة في أمراض القلب.
جلست على أريكتي المطلة على الشارع، حيث كانت الشمس ترسل بعض أشعتها إلى الشرفة.
ارتشفت فنجان قهوتي، وشرعت في تصفح المخطوط.
الصفحة الخامسة عشرة.
اسمي أنطوان مالو، ولدت في 12 ديسمبر 1953 بمدينة أميان بفرنسا، توفي أبي جان بيار في حرب الجزائر، في معركة عين الزانة بمنطقة سوق أهراس، في 14 يوليو 1959 حيث شن الجزائريون هجوما على المركز العسكري الذي يضم عددا من الجنود الفرنسيين بينهم أبي، جان بيار، ولم يصلنا خبر موته إلا بعد أحد عشر يوما، هكذا سمعت من أمي كاترين التي قضت حياتها مصابة باكتئاب عميق إلى أن ماتت

في العام 1993 بعد تعرضها لنزيف حاد في الدماغ.

هي تحبـــه، وتحتفظ بصـــورة كبيرة لـــه، ببزته العســـكرية، قريبا من السرير. وكانت تقبل الصورة كل ليلة قبل النوم وبعده.

كانت تقول لي كلما رأتني أقوم بالتحية العسكرية على ســـبيل الدعابة "جدك أوليفيي هو الســـبب.. كان عســـكريا طول حياته، وعمل في الصحـــراء، يحب بزة الكاكي والنياشـــين، وهو من زرعها في ابنيه جان بيار وجول، الأول مات قتيلا والثاني يقضي حياته معطوبا بعد إصابته في انفجار لغم بمدغشقر.. جدك هو السبب.".

كانت أمي تحقـــد على جدي، ولا تحب لقاءه حتى في ذكرى موت أبي، وكان يقول باعتزاز "جان بيار لم يمت غرقا في بحر أو بسبب السل والملاريا. مات من أجل فرنســـا في يوم 14 يوليو المجيد، وهو يوم تذكره فيه الأمة الفرنسية بأكملها.".

صـــار كلام جدي يتكـــرر عاما بعد عـــام، إلى أن مات في صمـــت، ولم تقم له فرنســـا جنازة الأبطال المنتصرين كما كان يأمل دائما ويقول "من حارب في الصحراء لأجل فرنسا، فلن تكون جنازته أقل من تلك التي أقيمت للويس الرابع عشر".

لا أذكـــر جيدا أنني أحتفظ بصورة لي مع أبي إلا مرتيـــن. الأولى في عيد ميـــلادي ولم أكن جاوزت الثالثة، والثانية قبل أن يســـتدعى للعمل في الجيش بالجزائر وعمري خمس سنوات.

عشـــت حياة عادية جدا، ففي أميان الصغيرة، تعرف العائـــلات بعضهـــا بعضـــا، وتعتز بمقاومـــة الألمان النازيين.

لم أكن أعرف الجنرال شـــارل ديغـــول إلا عندما بلغت العاشرة، فكثيرا ما كنت أسمع جدي ينظر إلى صورة الجنرال ويقول "كنـــت عظيما أيها الرجل.. وعندما تركـــت الجزائر لأولئـــك الفلاقة لم تعد تختلف عن الماريشال بيتان..صحيح للعظمة وجهها الآخر، هو الخيانة".

كنت أشبه بمن ولد يتيما، أب مات بعيدا وأم تعيش في اكتئاب، وأنا الطفل الذي لم تمنحه الدنيا ســـوى الحرمان.

لم يكن لي أصدقاء في طفولتي. وحدها ماري روز كانت تبادلني كثيرا من الشقاوة.

ماري روز الشـــقراء الصغيرة، أبوها معلم بمدرسة فيكتور هيغـــو وأمها موظفة بالبلديـــة، كانت تأتي إلـــى بيت جدي المطل علـــى مزرعته التي يكثر فيها البـــط والدواجن الأخرى، وتحدثنـــي عن أبيها الذي كثيرا مـــا كان يضرب أمها عندمـــا يطلب منها أن تقرضه ثلاثين أو أربعين فرنكا، فترفض، فهو مدمن قمار، يشتكي منه الجيران، وله كثير من القضايا في المحاكم بسبب اعتدائه على الناس.

كان عمر ماري روز تســـع سنوات، بينما كنت في الحادية عشرة.

في مثل هذه الســـن كنت أرى عائلات جديدة تفد إلى أميان، ولم أعرف السر.

كان الناس يســـتقبلونهم بحفـــاوة، وعندما تنتهي مراســـيم اللقاء، ينزوي ســـكان أميان فـــي المقاهي والحانات، ويشـــرعون في انتقاد الحكومة التي جلبت هؤلاء الذين يطلق عليهم "الأقدام السوداء".

كنـــت في أول الأمر أنظر إلى أقدام هؤلاء الوافدين الجدد إلى أميان، ثم أســـأل جدي "لكن أقدامهم ليست ســـوداء"، فيرد علي بما لا أفهمه "عندما تكبر.. حينها تعرف لماذا أصبحوا يسمون أقداما سوداء وقد ذهبوا إلى الجزائر وأقدامهم أكثر بياضا.. ديغول هو السبب." لا شأن لي بما فعله ديغول ولا من جاء بعده.

لم تكن لي هوايات غير الاســـتماع إلى اســـطوانات الموســـيقى الكلاســـيكية في جهاز فونوغراف يملكه جدي في مكتبه. وكان ليلة كل أحد يدعوني لأسمع معه سيمفونيات كبار الموسيقيين الأوروبيين أمثال شـــوبان وموزار وتشايكوفســـكي وحتى فيردي. ولم أكن أفهم في البداية تلك الموســـيقى التي تتداخل فيها آلات كثيرة، وكنت أحب سماع داليدا وأزنافور وإديت بياف. لكن جدي أقنعني بأن من يسعى لتهذيب أذنيـــه في الســـماع، فمـــا عليه إلا أن يســـتمع لكبار الموسيقيين في العالم.

جدي كان عســـكريا حتى في ضبط ذوق الآخرين. قال لي أحب موسيقى شوبان فلم أجرؤ على قول لا، ودعاني إلى أن أســـتمتع بروائع بيتهوفن. ولم يكتف بهذا بل أهداني في عيد ميلادي الثاني عشـــر قيثارة صغيرة، جعلتني أحب الموسيقى أكثر.

كنت أقلد بعض الإيقاعات، وأسعى لأن أقنع نفسي أن لي موهبة بحاجة إلى دعم ومساعدة.

لم تأخذ القيثارة شـــيئا من تعلقي بالدراسة. وفي السابعة عشرة اجتزت امتحانات دخول الجامعة بنجاح كبير. ولم يحدث أن رأيت جدي سعيدا، مثلما رأيته في ذلك اليوم الذي أبلغته فيه بنجاحي.

راح يحضنني، ويبكي. سألته:
- ما الذي يبكيك؟
- تمنيت لو أن أباك كان حيا فيفرح.
- أنا لم يعد يحزنني غيابه.. لأنني لا أشعر بشيء اسمه العائلة، أب ميت وأم فاقدة الوعي، وجد يعيش مع الماضي.

لم يقل جدي كلمة، وانصرف خارج صالون البيت. ففهمت أن كلامي أغضبه. ولم أحاول الاعتذار.

لا معنى للفرح إن لم تره في عيون الآخرين. وماري روز هي ذلك الآخر الذي انتظرته مثل بابا نويل. جاءتني في آخر المساء ومعها باقة ورد، وقليل من الشوكولاطة.

كأن الدنيا لا تسعها. قبلتني بحرارة، فكانت المرة الأولى التي شعرت فيها بمعني الحب. ربما هي تحبني وأنا لا أفهم ذلك.

لم أنتظر طويلا وسألتها إن كانت تقبل مرافقتي إلى سينما "كوليزي" لتشاهد معي العرض الأخير لفيلم "ذهب مع الريح". قالت لي:
- إن كانت هناك من ترفض مرافقة شاب وسيم مثلك وتضييع فرصة مشاهدة فيلم كهذا، فهي لا تصلح لأي شيء.

وخرجنا إلى شوارع أميان لا تسعنا الفرحة، حتى أنني قلت لها ونحن ندخل حانة منزوية في شارع مسدود:
- ما رأيك لو مارسنا شيئا من النزق والغوايات التي لا نعرفها؟
- لا مانع عندي، لأنني سليلة أب حرفته هذه..

لم أقل شيئا، وسحبت من جيبي صورة لأبي في كتيبة

عسكرية بالصحراء. قالت لي ماري روز:
- كان وسيما..
- ولا يعـــرف له قبر.. إنه في تلـــك البلاد.. صارا جزءا من ترابها..
- آسفة..
- عن أي شيء تأسفين.. أبي مات، وأمي تعيش اكتئابا مزمنا، وجدي غارق في نياشينه.. وأنت وحدك من يمنحني الســعادة.. ما رأيك في أن نحتسي القدح الأول ونرقص؟
- لا أجيد الرقص.. إنما سأرقص.
- وأنا لا أجيد الشرب، إنما سأشرب.

دخلنـــا الحانة، فلم يكن بهـــا خلق كثير. نظر النادل إلينـــا نظرة تنبئ بعدم رضاه عن وجودنا، ثم ســـألني وهو يفرك يديه ثم يمســـح شـــاربيه ويحـــرك ســـيجارة مطفـــأة بيـــن شـــفتيه يمينا وشـــمالا:

- كم عمرك أنت؟
- بعد عام يصبح ثمانية عشر عاما..
- بعد عام؟
- وثلاثة أشهر ويومين..
- وأنت أيتها الجميلة؟

فاحمـــر وجـــه مـــاري روز، ولم تجب. فـــرد النادل بابتسامة عريضة:

- من منكما الناجح في الامتحان؟

انفتحت أساريري، واستعدت حضوري كواحد ممتلئ الرجولة.

- أنا طبعا وبدرجة عالية.

- في هذه الحال، سأمنحكما شرابا مجانا، إنما لا تكثرا منه فلن تعرفا طريق العودة.
- لا تخف.. لن تضيع منا الطريق، لأننا سنذهب لمشاهدة "ذهب مع الريح"..
- ملعون كارل غيبل في هذا الفيلم.. لقد علمنا كيف نقبل نساءنا.

فانكفأت ماري روز مرة أخرى على نفسها، ولكن النادل واصل كلامه دون أن يهتم كثيرا لحال ماري:

- كنت معلما للغة الفرنسية، ولكن موت أبي عجلت بخروجي من الوظيف، والتحقت بهذه الحانة.. هي ملك لأبي، لكنني قبل النوم أقرأ كثيرا من الشعر، وأحب ما كتبه اللورد بايرون. هل تعرفه؟
- لا..
- وأنت؟
- لا.

غضب النادل، وكأن ردنا لم يقنعه، وقال بصوت فيه كثير من الأسف:

- يقول بايرون: تمنيت لو أن للنساء فما واحدا لقبلته واسترحت.

ثم انفجر ضاحكا، وهو يملأ كوبين كبيرين من الجعة الإيرلندية.

- ما قاله بايرون هو اختزال لفيلم "ذهب مع الريح".. اشربا واستمتعا بوقتكما وبالفيلم.. إنما لا تضيعا طريق العودة إلى البيت.

كم كان نبيلا هذا النادل ذو الجسم الممتلئ. فهمت منه أنه أراد أن يقاسمنا شيئا من الفرحة الغائبة.

اخترنا زاويـــة قاتمة، وطاولة عتيقة يميل لونها إلى السواد، تتوسطها ورقة كتب عليها:

يمكنك أن تشتري سكنا
لكن من الصعب الحصول على الهناء
ويمكنك أن تشتري سريرا
لكن لا يمكنك أن تحصل على النوم
ويمكنك أن تقتني ساعة
لكن لا يمكنك أن تكسب الوقت
ويمكنك أن تشتري كتابا
لكن ليس سهلا الحصول على المعرفة
ويمكنك أن تصل إلى موقع ما
لكن من الصعب الحصول على الاحترام
ويمكنك أن تسدد مصاريف الطبيب
لكن ما أصعب الحصول على الصحة
ويمكنك أن تشتري الدم
فهل من السهل الحصول على الحياة.

أخرجت مـــاري ورقة وراحت تـــدون هذه الحكمة وتقول لي ضاحكة:

- ســـأبدأ بالحكمـــة الأولـــى لأصـــل إلـــى الحكمة الأخيرة.

قلت لماري روز وأنا أحدق في عينيها:

- تعرفين.. اليوم صرت رجلا..
- أما أنا فبقي أمامي عام وســـبعة أشـــهر وستة أيام لأكون امرأة كاملة..
- أنت أكثر من امرأة، أنت تسعين الكون كله.
- يبدو أن صاحبنا النادل جعلك تشعر أنك بايرون أو تكاد..

- كل إنسان يحمل في داخله بايرون..

لا يمكن لأحد أن يتصور الحال التي كنت عليها، فهي المرة الأولى التي أجالس فيها امرأة قريبة من سني. أعتقد أنها تحبني، أو هكذا يتهيأ لي.

لم أشأ التكلم معها في حياتها البائسة، فأنا أعرف عنها ما لا تعرفه هي عني. أجزم أنها تحبني، فهي تتحسس يدي بين الحين والآخر.

سألتها إن كانت ترى في اختياري لمزاولة دراستي في القانون أمرا مقبولا، لكنها نصحتني بدراسة الموسيقى، لكثرة اهتمامي بها وبرموزها.

- سأجرب..

- وأما أنا فسأدرس الصيدلة.

- الصيدلة أيضا كالموسيقى، الأولى أساسها تركيب كيمياوي دقيق ينتج عنه دواء للجسم، والثانية تعتمد على نوتات موسيقية مترابطة ينتج عنها دواء للروح والمزاج..

- قلت لك إن بايرون بدأ يفعل فعله بداخلك..

تحدثنا في كل شيء، مفيد وغير مفيد. روت لي نكتا وأحجيات، وأعدت عليها قصة حذاء ساندريلا، وكلمتني عن خالتها التي تزوجت إحدى عشرة مرة في ثلاثة أعوام، فأسمعتها من قصص جدي ما جعل عينيها تبدوان وكأنهما خرجتا من مأتم، ثم راحت تسرد أمامي أسماء الأطفال الذين كانوا يعاكسونها عند باب المدرسة، ولم أذكر لها فتاة واحدة عاكستها، لأنني لم أعرف غيرها.

امتد بنا الحديث طويلا، وكنت ألمح بين الفينة والأخرى النادل وهو يسترق نظرة منا، ثم يبتسم.

نظرت ماري إلى الساعة، وراحت تضحك.
- الفيلم؟
- ذهب مع الريح..
- أعرف.
- ماذا تعرف؟
- أعرف أنه "ذهب مع الريح".
- أنظر إلى ساعتك وستعرف أنه ذهب فعلا مع الريح..
- يا ااااه.. حظ تعيس.
- سنشاهده في العام المقبل في يوم نجاحي..
- في ذلك اليوم سأعزف لك سيمفونية رقصة البجع.. ولتذهب كل الأفلام مع الريح أو إلى الجحيم. دعينا نكمل سهرتنا..

أحببت الحياة كثيرا، وصرت أرى ماري نقطة الضوء التي تمنحني السعادة، وتدفعني إلى مزيد النجاح.

كنا أشبه بيتيمين. صرت وطنا لها، وصارت وطنا لي. تعرف همومي، مثلما أعيش همومها. هي تحبني كما لم تحب جولييت روميو. وأنا أحبها كما أحب بايرون نساء الأرض.

في ذلك اليوم عدت إلى بيت جدي وكانت الساعة جاوزت الحادية عشرة ليلا. لمحته واقفا خلف نافذة غرفة مكتبه، تحت ضوء خافت. كان ينتظرني.

طرقت الباب طرقا خفيفا. وانتبهت إلى أنه شبه مفتوح، فدلفت برأسي، وأنا أتوقع ضربة عصا من يد جدي. ولم أكد أغلق الباب خلفي حتى أطل برأسه، ولم يكن غاضبا من تأخري، هذا ما شعرت به وهو ينظر إلي. بقيت واقفا في مكاني أبحث عن حجة

أتعلل بها، لكن صوت جدي قطع كل تفكير:
- كيف كانت سهرتك؟
- يعني..
- هل أعجبتك؟
- السهرة؟
- ماري.. يا غبي.
أربكني كلام جدي إلى الحد أنني حاولت الهروب منه والصعود إلى غرفتي في الطابق العلوي، لكنه أوقفني بعصاه:
- إن كانت تحبك فلا تتركها.. وإذا كنت تحبها فاعمل حتى لا تتركك..
- لا أدري..
- أنت تحبها إذن.
- وهي لم تفصح لي عن ذلك؟
- ليس في أول يوم يا غبي..
- ولكنني..
- قلت لك إنه أول يوم.. ورحلة الحب تبدأ بقبلة. هل قبلتك؟
- ما يشبه القبلة..
- لا تتركها إذن.. وليلة هادئة.
صرت في حيرة من أمري، فكأن الذي كان يكلمني بتلك اللهجة لم يكن جدى. جدي ذلك الرجل الذي نشأ عسكريا وبقي على عقيدة الثكنات بعد السبعين..
جاءتني جانيت، الخادمة التي تسهر على راحة أمي منذ وفاة أبي، وفي عينيها شيء كالدمع:
- أنا سعيدة لنجاحك.. لكن أمك أكثر سعادة.
- .....

- لم أجد حيلة لأجعلها تعرف أنك نجحت سوى أن كتبت لها جملة في ورقة "أنطوان نجح وسيدخل الجامعة". لم تقل أي كلمة وراحت تحضنني وتبكي كطفلة صغيرة.

- أمي فعلت هذا..

- ثم راحت تحضن صورة أبيك.

فأسرعت نحو أمي. كانت تترقبني، هي المرأة التي فقدت كل إحساس بالحياة.

لم أجرؤ على الاقتراب منها، كأنما أصابني شلل. تقدمت نحوي بخطى متثاقلة، وما إن صارت على نصف متر مني حتى ألقت بكامل جسمها النحيف علي، وأرسلت صرخة مدوية اهتزت لها أرجاء بيت جدي العتيق. وراحت تقبل وجهي وجبيني ويدي وصدري.. وتضمني نحوها، ولا أسمع غير اهتزازات صدرها العامرة بالحب والفرح.

سمعت وقع أقدام على السلم. لم يكن غير جدي. تقدم نحونا وبقي واقفا ينظر إليّ أنا وأمي. رفعت أمي عينيها في جهة جدي، فلم يلبث أن انهار كجدار. أسرعت نحوه، فأمسكت بي أمي ونطقت بكلمة واحدة "دعه".

صعب موقف كهذا. قبلت جبين أمي، وتقدمت نحو جدي الملقى على الأرض.

- سامحني يا جدي.. هي لا تقصد إيذاءك.

- جان بيار لم يكن ابني وحدي.. كان زوجها.

- اتركوه يرتاح بعيدا..

عادت أمي إلى فراشها. وخرج جدي، بينما كانت جانيت تنظر من خلف نافذة الشرفة، ممزقة القلب، لا تقوى على فعل شيئ.

لـــم تكن تلك الليلـــة عادية. فالفرحـــة تصنع الألم أحيانا.

لم أنم. ورحت أستعيد ملامح ماري روز في الحانة والشارع وعلى الجسر الحجري الخاصة بالراجلين. ولم يتوقف رنين كلمة دعـــه التي تفوهت بها أمي، فقد كانت آخر كلمة أسمعها منها إلى أن ماتت بعد عشرين عاما من صمت قاتل.

كنا أربعة في ذلك البيـــت، جدي وأمي وفيوبيت وأنا، وقطة نطلق عليهـــا "كارمن". إنما كان البيت عامرا بالذكريات .

فـــي أول أيام دخولـــي المعهد العالي للموســـيقى، سألتني ماري روز، عند عودتي في آخر المساء.

- هل توجد فتيات في المعهد؟
- كثيرات..
- وهل بينهن من تشبهنني؟
- لا أعرف.. هناك أشكال وألوان. هل تغارين؟
- لا.. ولكنني أخاف عليك.
- من النساء؟
- لا.. من هذا الـــذي يحدث في باريس، واحتجاجات الشباب التي لا تتوقف..
- تقصديـــن أتبـــاع هـــذا المســـمى دانيـــال كوهن بينديت..
- كل الجامعـــات تهتـــف باســـمه وتنادي بســـقوط الحكومات وتلعن السياسيين..
- لا شأن لي بهم.
- ابق إذن في عالم بايرون.

فتحت ماري روز عيني على شوارع باريس الملتهبة،

حيث خرج آلاف الطلاب، في حالة من الرفض والتمرد والعصيان، يرددون أغاني البيتلز ويبصقون على أولئك الذين يقولون لهم لا تنسوا أن للمجتمع أعرافا وأخلاقا.. خرجوا حفاة عراة لا تكفيهم أطنان من ورق التوت.

سمعت أحدهم وهو يتكئ على سور المعهد:

- لا وصاية لأحد علينا..

قلت له وأنا أحاول أن أفهم ماذا يقصد بالضبط:

- أي وصاية تقصد؟

- كل الوصايات، في البيت والشارع..

- لم أفهم.

- لأنك تحت الوصاية..

- وصاية من؟

- وصاية أمك أو عشيقتك..

فلم أتمالك نفسي وصفعته، ثم ركلته، قبل أن يتدخل طالبان كانا قريبين منا. ولم يقل شيئا واكتفى بابتسامة وتعليق أخير:

- عندما تتخلص من الوصاية ستعرف كيف تحترم الآخرين.

كنت أسمع من جدي كل مساء حديثا طويلا عن الوطنية وحب فرنسا، وبلغ به الأمر مرة أن قال لي، هل أريك شيئا مما كتبت في العام 1946 عندما كنت في جزر المارتينيك مكلفا بتدريب الدفعات الأولى من الجندرمة. وجاءني بمخطوط، فيه أشياء عجيبة كشفت لي عن الوجه الآخر لجدي، الكاتب المسرحي. وراح يقرأ أمامي مقطعا من مسرحية "إمبراطور في المنفى" جاء فيها ما يلي:

العام 1821
المكان: سجن جزيرة سانت هيلانه
الأبطال: نابوليون بونابرت وحارسه جوزيف
(نابوليون يتكئ على سرير في حالة إعياء)
نابوليون: تعال يا جوزيف.. لم يعد لي في هذا العالم غير هذه الجدران اللعينة.. وأنت أيها الحارس الطيب..
أشعر أنني لن أكمل معك الرحلة..
الحارس: لا.. أيها الإمبراطور المعظم..
نابوليون: عظمة الإمبراطور ضاعت في واترلو.. خانني أصحابي.. لم يعرفوا معنى المجد..يريدون أن يمحوه بأيديهم..
الحارس: المجد لا يمحى أيها الإمبراطور..
نابوليون: تمحوه الخيانة.. وأنا لم أخن فرنسا.. تعال واسمع.. هذه وصيتي..
(سعال شديد.. وعرق يتصبب)
الحارس: هل أحضر الماء..
نابوليون: لا فائدة.. فعلها الخونة.. هذه وصيتي.. اقرأها.. اقرأها..
الحارس: لو كنت أحسن القراءة ما كنت حارس سجن..
نابوليون: تعرف يا جوزيف "في هذا العالم توجد قوتان، السيف والفكر، والفكر هو المنتصر دائما.." هل فهمت..
الحارس: شيئا ما..
نابوليون: أوصي بأن يرمى رماد جسدي على ضفاف نهر السين، في وسط الشعب الفرنسي الذي أحببته

كثيرا..
الحارس: أنا أحبك يا نابوليون..
نابوليون: قلها مرة أخرى..
الحارس: نعم أحبك أيها الإمبراطور..
نابوليون: أنت آخر من أسمع منه هذه الكلمة التي من أجلها أعلنت الحرب على العالم.. من أجل فرنسا..
(يحاول الوقوف)
الحارس: لا تتحرك.. أنا معك هل تريد شيئا؟
نابوليون: أريد سرج حصاني.. وتلك النياشين..
الحارس: سأحضرهما حالا.. لا تتحرك من مكانك.
(يتجه الحارس نحو السرج الملقى أرضا ويأخذ النياشين الملتصقة بسترة نابوليون العسكرية)
الحارس: هل تريد شيئا آخر؟
نابوليون: أجلس بجانبي..
(يقلب السرج على كل الجهات)
نابوليون: تعرف يا جوزيف.. هذا السرج انتقل بين النمسا وبلاد روسيا ومصر.. وها هو ينـــام معـــي في سانت هيلانه..
الحارس: هل لي أن أحتفظ به..
نابوليون: بشرط.. أن تعيد غزو أوروبا كلها..
الحارس: يكفي أن أغزو سانت هيلانة..
نابوليون: وهذه النياشين.. أعرف أن الخونة من جنرالات فرنسا سيعلقون بعدي أضعاف ما علقته أنا.. هي لك يا جوزيف فاحتفظ بها لأنك ستكون آخر من يراها وهي على صدري.. (ويلبس السترة بنياشينها)..

الحارس: وهل تأذن لي بتعليق النياشين على صدري؟
نابوليون: قلت لك احتفظ بها.. وعلقها إن شئت.. فكل شيء كذب في كذب.
الحارس: سأكون أسعد الناس لو علقت جزءا منها..
نابوليون: والآن هل آن أن أقرأ الوصية؟
الحارس: أنا أستمع إليك..
(يقرأ نابوليون وصيته بكلمات متقطعة وفي إعياء)
نابوليون: أوصي ابني بألا يحارب ضد بلده أو يكون سببا في إذلال بلده.. أوصيه بأن يأخذ بنصيحتي : كل شيء يهون من أجل الشعب الفرنسي..
(يواصل القراءة بكلمات متقطعة والحارس يساعده ويقدم له الماء)
الحارس: لا ترهق نفسك يا نابوليون..
نابوليون:(ينظر إلى الحارس مبتسما).. فعلها أبناء الكلب..
الحارس: من تقصد؟
نابوليون: أنت لا ذنب لك.
الحارس: معذرة أيها الامبراطور إن تجرأت وناديتك نابوليون لأنني أشعر بعد هذه السنوات التي قضيتها معك في هذه الجزيرة البعيدة أنني أصبحت صديقا لك..
نابوليون: نعم نحن أصدقاء يا جوزيف.. فكلانا سجين وسجان.
(يصمت قليلا)
الحارس: ما لك يا نابوليون..
نابوليون: أعطيت فرنسا كل شيء.. وخانني

أصحابي.. أنا أسامحهم، وليسامحهم الشعب الفرنسي..
الحارس: كم هو كبير قلبك يا نابوليون..
نابوليون: كل القلوب كبيرة، إلا قلوب الجبناء فهي أضيق من عيون الطير..
الحارس: أنت حكيم يا نابوليون..
نابوليون: تمنيت شيئا واحدا ولم أحققه..
الحارس: ما هو؟
نابوليون: أرسلت الكولونيل فانسون بوتان قبل ثلاثة عشرعاما ليجمع معلومات..
(يسعل ويزداد إعياء)..
الحارس: هل أجلب لك الماء؟
نابوليون: بوتان، كان يملك ذكاء خارقا..
الحارس: لا أعرفه ولم أسمع به.
نابوليون: طلبت منه ذلك بعد أن عدت من مصر.. قلت له أريد كل شيء عن قوتهم وتحصيناتهم..
الحارس: تقصد ماذا؟
نابوليون: آه يا تاليران خذلتني.. وأنت يا لافاييت هزمتني.. أما أنت يا مارمون فلم تكن ذلك الرجل الذي حسبت..
الحارس: ألم تسامحهم؟
نابوليون: بونابرت سامحهم.. فرنسا قد تسامحهم.. أما التاريخ فلا أعرف.. (يزداد العرق) جوزيف.. أشعر برعشة كبيرة في قدمي.. أمسك قدمي.. (يتقدم جوزيف.. ويمسك قدميه في حالة إرباك شديد)
نابوليون: أنا حزين يا جوزيف.. حزين لأنني

سأموت بعيدا عن باريس.. حزين لأنني لم أصل إلى هناك.. لم أجعل من القراصنة عشائي الأخير.. أنا حزين يا جوزيف..

الحارس: لست وحدك الحزين.. يا نابوليون.

نابوليون: ليسوا رجالا إذا لم يصلوا إلى هناك..

الحارس: إلى أين؟

نابوليون: إلى حيث لن تنكسر سفن شارلكان مرة أخرى.. ولن ينعم القراصنة بخيرات البحر وحدهم..

الحارس: تقصد؟

نابوليون: (يشير برأسه) ذاك ما أقصد..

(ويغمى على نابوليون.. ويموت)

الحارس: (في حسرة) العظماء يموتون مرة واحدة.. لكنهم يظلون أحياء دائما.

وينتهي المشهد.

التفـــت إلى جدي، فدمعت عيناه، بينما حاول إخفاء ألم مكبوت. وسحب من خزانته صندوقا معدنيا، وقال لي:

- مـــا لم يفعلـــه نابوليـــون.. فعله أبـــوك. في هذا الصندوق تنام أســـرار أبيك البطل. اقرأ رسائله وستعرف أنك ابن رجل لن يتكرر أبدا.

أخذت الصندوق من يدي جدي، بينما اســـتدار جانبا واستلقى على سريره، وأشار إلي بيده أن اخرج.

خرجـــت وأغلقت الباب. وأنا أحس بأنني أحمل بين يدي أثقال الدنيا. وصعدت السلم وكأنني اتجه نحو قمة كليمنجارو.

أوصدت باب غرفتي جيدا. وعلى طاولتي القديمة، وضعت الصندوق، وفتحته بعد أن أوجست خيفة مما فيه.

كومـــة مـــن الأوراق والصور والرســـائل، وهدايا صغيرة، وخواتم نحاسية.

وضعت الأوراق على الطاولة ورحت أتأمل الصور.

أبي ببزته العســـكرية إلى جانب مجموعة من الجنود في منطقة جبلية.

صورة أخرى لأبي بلباس البحر، كتب على ظهرها "صيف 1957 بشاطئ عنابة".

صورة لأبي مع بعض أصدقائه الجنود في الجزائر، وقد دون في هامشها "القصبة – سبتمبر 1953"صورة لأبي في منطقة صحراوية مع بعض رفاقه من الجنود، وعلى ظهر الصـــورة كتب "فبراير 1956- الصحراء" وصـــورة كبيرة الحجم يظهـــر فيها أبي وهو يرفع العلم الفرنسي في ســـاحة إحدى الثكنات، وقد سجل على جانب الصـــورة الملاحظة التالية "صورة أخذت لي أثناء تخرج دفعتنا: تولون- مارس 1953".

ثم وضعت الرسائل جانبا، وشرعت في ترتيبها حسب تاريخ إرسالها. أكثر من ثلاث عشرة رسالة.

كتبت كلها بحبر أســـود، وتبدأ كل رســـالة بأبي العزيز، والرحمة على روح أمي الطاهرة.

الرسالة الأولى.

الجزائر – 23 سبتمبر 1953.

أبي العزيز

والرحمة على روح أمي الطاهرة.

وصلنا يوم الخميس إلى ميناء الجزائر، بعد أربعة أيام قضيناها في البحر قادمين من ميناء تولون.

الطقس بارد جدا، والمدينة جميلة، وتشبه امرأة تفتح ذراعيها لاستقبال شخص تحبه.

أخذونا إلى ثكنة الأميرالية الواقع قريبا من حي القصبة العتيق. هذا الحي الذي زرناه في اليوم الموالي، حيث الأزقة الضيقة الملتوية، الآخذة في صعود نحو الأعلى أو هبوط نحو البحر، وشدتني كثيرا تلك المباني المتكئ بعضها على بعض ولا يفصل بينها سوى أعمدة خشبية تمنحها نكهة معمارية مختلفة تماما.

سكان القصبة ما زالوا محافظين على ملابسهم التركية العتيقة، والنساء كلهن مدثرات في قماش أبيض يغطي أجسادهن، ولا تظهر من وجوههن سوى العيون.

وقبل مغادرتنا المكان سمعت صوتا يرتفع من مكان قريب، فأخبرنا مرافق لنا، وهو يهودي، أنه صوت المنادي للصلاة عند المسلمين مثل أجراس الكنيسة عندنا، إنما الفرق أن العرب يقولون كلاما أما نحن فنسمع النواقيس. وانتبهت إلى أن كثيرا منهم يحثون الخطى نحو بناء قريب. وأضاف مرافقنا، أن المنادي يرفع صوته خمس مرات في اليوم منذ الفجر حتى بدء الليل. شيء لا يصدق.

في اليوم الأول استكشفت شيئا من المدينة التي دخلها دي بورمون قبل مائة وثلاثة وعشرين عاما. كانت مدينة جميلة، وأجمل ما فيها أن الفرنسيين صاروا يشعرون فيها أنها ملك لهم وجزء من تاريخهم، هكذا قال لنا مرافقنا اليهودي.

في الأسبوع الأول، تم تقسيم كتيبتنا إلى أربع فصائل، أرسلت كل فصيلة إلى جهة محددة. الأولى إلى تلمسان، والثانية إلى سطيف التي شهدت تمردا

في مـــاي 1945 والثالثة إلـــى متليلي وكنت ضمنها، والرابعة تم إبقاؤها في الجزائر.

عندما سألت عن موقع متليلي من العاصمة الجزائر، قال لي الرقيب إيف مارون، وهو الأقدم في الأميرالية، إنها قريبـــة جدا، وتكفي ثلاثة أيـــام للوصول إليها، ففهمت أنها في الصحراء.

وأنا أكتب إليـــك هذه الرســـالة لأطمئنك على حالي، أتهيأ للرحيل إلى متليلي.

ادع لي يا أبي باســـم من تحب. ولن أكون بحاجة إلى أن أوصيك بعزيزتي كاترين وأنا أتشـــوق إلى سماع خبر ازديان فراش عائلتنا بمولود جديد.

وإلى رســـالة أخـــرى، إليـــك قبلاتي الحـــارة، أيها العسكري النبيل.

ملاحظة: مع الرسالة صورة لي في القصبة.

محبكم جان بيار

ســـمعت طرقـــا خفيفا علـــى الباب، فأســـرعت إلى إخفـــاء الصندوق والوثائق تحت غطاء الســـرير، ثم تماســـكت، وفتحت الباب، كانت جانيت تحمل كوبا من الليمون.

- أعـــرف أنك ســـهران.. هذا الليمـــون يخفف من قلقك.
- ادخلي.. جانيت.
- الساعة قاربت منتصف الليل..
- لا شأن لي بالوقت.. ادخلي.
- جدك..
- لا شأن لي بجدي..

دخلت جانيت، وجلست على كرسي خشبي قريب من

الباب، وهي تنظر إلي وكأنني أريد بها أذى.
- جانيت.. أريدك أن تكلميني عن أبي.
- عن أي شيء؟
- عن كل شيء.
- أمك كانت كل شـــيء بالنسبة إلى أبيك. وأنت كنت كل شيء بالنسبة إلى أمك.
- وجدي؟
- .....
- تحدثي.. ليس هناك ما يخيفك.
- جـــدك.. جـــدك.. كان كل شـــيء بالنســـبة إلى تاريخه.
- هـــل أخبرتك أمي عن علاقتهـــا بأبي.. أقصد هل تحابّا قبل الزواج؟
- أكثـــر من الحـــب.. كان الواحـــد منهما مجنونا بالآخـــر، هكذا قالـــت لي في الأســـبوع الأول من ميلادك. أخبرتني أنها كانت تتهيأ لدخول مدرسة المعلمين بأميان، عندما قابلت ذات صباح جان بيار قريبا من الجســـر الحجـــري، وكان متجها نحو محطة القطار.
- أريـــدك أن تذكري كل شـــيء بالتفصيل الممل، أريد أن أسمع قصة كاترين وجان بيار.
- أنت تحرجني..
- أين الحرج في أن يســـمع الإنســـان قصة حب أبيه وأمه؟
- أعرف أنها ستكون آخر ليلة لي في هذا البيت..
- لن تكون.. احكي لي.
- كانت أمك فائقة الجمال..

- وما زالت..
- وكان أبوك وسيما إلى الحد الذي جعل سوزان ابنة رئيس بلدية أميان تحاول الانتحار لأجله عندما رفض مبادلتها مشاعر المحبة في الثانوية، فتم طرده..
- لأنه رفض الارتباط بعلاقة مع ابنة رئيس البلدية.
- ولأن جدك بصق في وجه رئيس البلدية منتصرا لجان بيار.
- وبعد؟

في أكتوبر 1952 على ما أذكر، كانت كاترين طالبة في السنة الأخيرة في مدرسة المعلمين. تُوفي أبوها بعد إصابته بالسل عند عودته من الألزاس حيث شارك قبل ذاك في الحرب العالمية الثانية، وتكفل بها أخوها كلود إلى أن تزوجها أبوك.

- هل كان أبي يحبها؟
- قلت لك كان الواحد منهما مجنونا بالآخر.. ويكفي أن تعرف هذا من وضع أمك منذ أكثر من خمسة عشر عاما..
- هل حضرت عرسهما؟
- لم أكن على صلة بهذا البيت، لكن أمك أخبرتني أنها عندما التقت أباك المرة الأولى على الجسر بادلته التحية، كما هي عادة أهل أميان، فرد عليها، إنما زاد عليها كلمتين كانتا كفيلتين بتغيير مجرى حياتها، حيث قال لها "صباح الخير" وتوقف لحظة ثم قال "هل تقبلين أن أكون الجسر الذي تدوسه قدماك؟" فابتسمت بلباقة وردت عليه بما لم يكن

ينتظـــر "وهل تقبل أن أمنحك قبلة مقابل ما قلت؟" فاحمر وجهه وقال لها "إنك تمنحين هذا الطفل ما لا يجرؤ أن يطلبه منك لو كان يعرفك." فابتسمت وقالـــت "أنت أحق بالقبلة من أولئك الذين يجرون وراءها لمجرد نزوة.. خذها ودعني أكمل طريقي" ومرة ثانية تربك كاترين جان بيار، فلا يملك إلا أن ينظر في كل الاتجاهات ثم يتقدم نحوها ويقبلها علـــى خدها الأيمن، ويبقـــى الواحد منهما ينظر إلى الآخر في حالة انبهار بما وقع. لكن جان بيار كسر تلك اللحظة بأن أخبر كاترين أنه تعرض لإقصاء في الثانوية فقرر دخول الجيش بعد أن تم قبوله في كلية القوات البرية، وأخبرته كاترين أنها تســتعد لدخول مدرســة المعلمين. وشــعر الاثنان أن تلك اللحظة لن تكون عابرة فـــي حياتهما. وافترقا على قبلة ثانية.

- وبعد..

- قالت لي أمـــك إنها لم تنم تلـــك الليلة، وظلت مفتحة العينين تعيد شريط لقاء الجسر الحجري، ولـــم تفهم لماذا تصرفت مع جان بيار بمثل تلك العفوية، وتطلب منه ما فشـــل في تحقيقه عشرات الشـــباب الذين كانوا يطلقون عليها اســـم "غريتا غاربو"، للشـــبه الكبير بين أمك وساحرة السينما، وكذا لتســـريحة شعرها الشـــبيهة بها. وانتظرت لعل شـــيئا يصلها منه، وانتظر هو أيضا شيئا يصله منها، واستمر كل واحد ينتظر الآخر. ولكن الذي حـــدث أن كاترين التي منحت جان بيار قبلة على الجســـر الحجري، أخبرت أخاها كلود أنها ترغب

في زيارة صديقة لها في مارسيليا، واتجهت إلى تولون حيث جان بيار يقضي الأشهر الأولى لفترة التدريب العسكري.

- تقصدين أنها ذهبت من أميان إلى تولون..

- كان ذلك عشية أعياد الميلاد.. وأخذت معها باقة ورد انتقتها وردة وردة. وكانت تروي لي تفاصيل هذا اللقاء وكأنني أشاهد فيلما سينمائيا. قالت لي كنت أنظر إلى جان بيار وهو يمشي في رواق طويل فيه حركة ذهاب وإياب. لم يكن يعرف زائره. كان يبدو وهو يرتدي بزة رمادية أشبه برائد فضاء قادم من رحلة بعيدة. أتأمل حركات قدميه المتناسقة، وقلبي يخفق للقائه. إنني مجنونة. هذا الرجل لا أعرفه إلا من لقاء عابر، وصرت أغرق في بحر من الأسئلة التي لا جواب لها، ففي كل خطوة لجان بيار أزداد قلقا. ما الذي جاء بي إلى هذا المكان؟ قد يكون الرجل نسيني. أو ربما هو على علاقة بامرأة أخرى. إنني مجنونة. علي أن أرحل قبل أن يراني. هكذا كانت تردد كاترين قبل أن يدرك جان بيار المكان الذي يلتقي فيه الزوار الجنود الخاضعين لفترة التدريب. كان عشرات الزوار من عائلات وأقارب الجنود، يحملون باقات ورد وهدايا وفواكه. وكنت وحدي في أقصى اليمين، أتحرق لرؤية جان بيار، وأصاب بخيبة عندما أفكر في العواقب. هو لا يعرفني جيدا. التقينا على جسر ذات صباح فاعتقدت أن الرجل لي. وصل جان بيار، وراح ينظر في وجوه الزائرين والزائرات، لم يبصر هذا الوجه الذي

منحه قبلة في صباح بارد. ثم تقدم بخطى بطيئة وعيناه تبحثان عن الزائر غير المعلن. ولم أتمكن من اختراق ذلك الموقف الصعب. إنني مجنونة فعلا. وما أقوم به لا يصدر إلا عن امرأة مخبولة. لم أتمالك نفسي وأسرعت نحوه أضمه، وأهمس في أذنيه "سامحني.. إن لم أخبرك بمجيئي لأنني لا أعرفك جيدا.. الآن صرت أعرفك.. شكرا لأعياد الميلاد التي حملتني إليك من أميان إلى تولون".. وانتبهت إلى أن جان بيار لم يكن يعرف من تكون هذه المرأة التي تضمه إلى صدرها. رفعت رأسها، وإذا بجان بيار يهتف بأعلى صوته "شكرا لها أيها الجسر الحجري." وظلا متعانقين طويلا. قالت له، وهي في ذروة السعادة:

- سامحني..
- كان علي أن أبعث لك رسالة أو أي شيء..
- بل كان علي فعل ذلك.
- لم يبق أمامي سوى شهرين لأنهي فترة التدريب المغلق.
- أنا ما زلت في فترة التحصيل النظري الأولي.
- كيف تركت أميان؟
- فارغة منك..
- وستزداد فراغا بغيابك..
- لم أشأ أن أراك تقضي عيد الميلاد المجيد دون شموع أميان الساحرة.

وأعطته باقة الورد وبعض الشموع الملونة، ثم أخرجت من معطفها الرمادي علبة صغيرة.

- إن أعجبتك الهدية، احتفظ بها، وإذا لم تعجبك

فليس أمامك إلا البحر، ارمها فسيبتلعها.
فتح جان بيار العلبة، وبقي ينظر إلى الهدية، كانت صليبا حوله قلبان. قالت كاترين:
- إنه من الذهب..
- سيظل معلقا على صدري حتى الموت..
- أعجبك إذن..
- ليس أكثر منك..
وراحا يتنقلان جيئة وذهابا في رواق الثكنة، ويتبادلان حكايات وأحلاما وأشياء جميلة بدأت تتشكل بينهما. سألها:
- هل تقبلين الزواج مني؟
- ليتك تقبلني..
- لا أعرف إن كان هناك من أحب امرأة في اليوم الأول ودعاها إلى الزواج في اليوم الثاني..
- وارتبطا بحب وثيق ورباط مقدس طول العمر. أنا أحبك.
- وأنا لا يكفي أن أحبك، بل سيكون زواجنا في أول زيارة لي لأميان بعد انتهاء فترة التدريب.
- هل يقبل أبوك؟
- ما دمت عسكريا فلن يرفض أبدا.. ثم لا تنسي أن له حسابا مع رئيس البلدية. وسيفرح كثيرا لو أخبرته بما أرغب فيه.
- وأنا لن أجد مانعا. فأخي كلود يحبني ولا يقف في طريقي أبدا.
- أنت جميلة يا كاترين..
- وأنت حلو ووسيم..
- هل أسمعك شيئا مما كتبت؟

- أنت لست شاعرا..
- في أثنـــاء الرحلة من أميان إلـــى تولون لم أبرح الجسر الحجري، فرحت أكتب كلاما أحسبه شيئا من الشـــعر، أحتفظ به في جيب ســـترتي، وأقرأه كلما تذكرت أميان وكاتدرائيتها وبرجها العالي وأهلها والجسر.. وأنت.
- أنا جاهزة لسماع ريمبو العسكري.

أخرج جان بيـــار ورقة بدت وكأنها ســـقطت من مخطوط قديم، وشرع يقرأ:

لم يكن بيننا موعد..
لم أكن شاعرا حينها..
لم تكن حينها عاشقه
لحظة حارقه
حين ألقت علي التحية
قلت اجعليني إذا شئت جسرا
ودوسي عليه بنعليك حتى المساء
هو جسر النساء
وأعطيتني قبلة
لم أكن أعرف الحب حين رأيتك
حين سمعتك
حين طبعت على خدك المتورد
ما لو بقيت ثلاثين عاما لما نلته بعيوني
سكنت جفوني
وأصبحت من قبلة في العراء
أغني لعاشقة منحتني الذي يشتهيه الرجال
ولم أك أعرف عنوانها واسمها

واكتفيت بقبلتها
ورحيق الجمال
ليتها عرفت من أكون
ليتني كنت نبضا لقلبين يحترفان الجنون
ليتني شاعر مثل ريمبو
أقول الذي يختفي في الشفاه
ويكبر كالحلم بين العيون

وما إن أنهى جان بيار قراءة قصيدته، وهم بوضع الورقة في جيبه، حتى خطفتها كاترين من يده:
- لم تعد ملكا لك..
- هي ملك للجسر الحجري..
- والجسر صار ملكا لنا.. هل تأذن لي بأن أنشر القصيدة في مجلة المدرسة؟
- هي لك، افعلي بها ما شئت..
- هل لي أن أطلب منك شيئا آخر؟
- إن كان بإمكاني، فليكن..
- أن أقبلك على خدك الأيمن بعيدا عن الجسر..
- وبعيدا عن عيون الزوار..
واختليا بعيدا، إلى أن دق جرس الثكنة معلنا نهاية الزيارة، ومعها افترقت كاترين وجان بيار على موعد في كاتدرائية أميان العظيمة إن في الربيع أو الصيف.
وقبل توديعها قال لها "أنت الملاك الذي يحرسني". فردت عليه "ستحرسنا قبيلة من الملائكة".
عادت كاترين إلى أميان ممتلئة سعادة، وراحت تعد الأيام والساعات..

وقف أنطوان وطبع قبلة حارة على جبين جانيت:
- أعرف أنك تعبت.. يكفيني ما سمعت منك هذه الليلة. غدا حدثيني عن كنيسة أميان وطقوس العرس.
- لك ما تريد..
وخرجت جانيت. بينما أعاد أنطوان ترتيب رسائل أبيه، وأخذ رسالة أخرى.
متليلي في 12 أكتوبر 1953.
أبي العزيز
والرحمة على روح أمي الطاهرة.
أكتب لك من الصحراء التي أحببت، وأنا أتحسس طريق الأب شارل دي فوكو الذي قلت لي مرارا إن على يديه وصلت فرنسا إلى حيث لا تصل العفاريت. متليلي تختلف عن المدن الأخرى، أهلها أيضا يختلفون عن سكان الشمال. طيبون ولا يأمنون الأغراب.
كتيبتنا تقوم بتأمين الحراسة لقوافل الإمداد الحربي المتجهة نحو مدن الجنوب، عين صالح وجانت وتمنراست.
أخبرني قائد الكتيبة أنني سأنتقل في نهاية العام إلى وادي سوف حيث تم إنشاء مركز حدودي، ربما توكل إلي قيادته.
أقضي أيامي مع الكتابة، فهذه الصحراء الموحشة، وواحاتها، تدفع الانسان إلى أن يكون شاعرا رغم أنفه. إذ صار بحوزتي كثير من الأشعار، جمعتها في دفتر وأطلقت عليها اسم "بارودة الشمس والورد". وسأهديها للمولود الذي أنتظر قدومه. وإلى كاترين التي علمتني كتابة الشعر على جسر حجري.

أبي أعـــرف أنك ما زلـــت حزينا علـــى أمي التي ماتت بعد إصابتها بنزف في الدماغ في الأيام الأولى لوصولك سانت ماري بالمارتينيك، وما زلت تأسف لأخي جول الذي فقد رجله في مدغشـــقر. لا عليك، فحيـــن اخترنا أن تكون مهنتنـــا الحرب لم نفكر في شيء اسمه الموت، ما دام الخلود لا يناله إلا من كانت حرفتهم الموت.

أحبك يا أبي

بلغ تحياتي لكاترين ولا تعتب عليها.

قبل ابني عند ميلاده وقل له سأعود ومعي كثير من الهدايا. جان بيار

ولم تكن الرســـالة الثالثة تتضمـــن أكثر من أربعة أسطر.

وادي سوف: 6 ديسمبر 1953

أبي العزيز

والرحمة على روح أمي الطاهرة.

في الثالث من ديســـمبر 1953 تـــم تعييني على رأس مركز حـــدودي للمراقبة، ولا أعرف كم يســـتمر بقائي في هذا المركز المعزول تماما.

معي 12 جنديا، ولا يوجد سكان كثيرون بالمنطقة.

بلغ سلامي لكاترين وأنطوان وكل الذين أحب.

جان بيار

وكانت الرســـالة الرابعة عبارة عن صورة لأبي على كثبان رملية، كتب على ظهرها.

وادي سوف: 27 ديسمبر 1953

ابني العزيز

زوجتي العزيزة

سـامحني يا أبي إن تجرأت على عدم ذكر اسمك في أول الكلام، وكذا روح أمي الطاهرة، فقد أنستني فرحة ولادة ابني الذي انتظرته تحت الشمس الحارقة وفـي منافي هذه البلاد الوعرة. سـامحني وأنت من يعرف معنى الأبوة. سامحني لأنني صرت أبا مثلك، واغفر لي ما كتبت..

ألف قبلة على جبين أنطوان
وألف قبلة على جبين كاترين
ولك يا أبي أشواقي

جان بيار

وتضمنت الرسـالة الخامسة من أبي لجدي رسوما يدوية بقلم الرصاص. أربعة أشخاص، هم جدي وأمي وأنا وجانيت، وجملة واحدة باللون الأحمر "اشـتقت إليكم جميعا.. أحبكم" وفي ظهر الورقة كتب باللون الأحمر أيضا "جان بيار- بئر العاتر 25 سبتمبر 1954 ورقـة أخرى ممزقة، حاولـت تجميعها. إنها قصيدة شـعر كتبها في روجي، وهو صديق له توفي بسبب لدغة عقرب في منطقة وادي سوف.

ألم تكن الرصاصة أرحم يا صديقي
أنت الذي كنت تحدثني عن الشمس
وعن نساء باريس الضاحكات
وتقول لي إنك تعد النجوم كل مساء لتنام
ألم تكن رصاصة طائشة أرحم من عقرب
لا تعرف شيئا عن بزتك العسكرية
ولا تسأل عن سر وجودك في الصحراء
العقرب لا تحب فرنسا
لهذا كان عليك أن تموت

وكان علي أن أقول لك
وداعا أيها الطفل الذي لم تقتله رصاصة
الساعة الثالثة صباحا.

لاحت مني طلة من خلف النافذة المفتوحة قليلا على الشارع. رأيت الثلج يسقط في صمت. وقفت أتأمل ذلك المشهد الرائع، ثم لم ألبث أن خرجت، إلى حديقة البيت الجانبية، كان البياض يملأ المكان.

كم هي بديعة حديقة جدي. شجرة الصفصاف التي تتوسطها وأغصان الأشجار المثقلة بأكوام الثلج، وسورها الحجري.

وغير بعيد، يتراءى برج بيري العالي وكأنه يحرس أميان مثل آلهة اليونان القديمة.

الصمت وحده يلف الساحة.

وأضواء قليلة خافتة تتبدى من بعض المنازل التى لم يعد يظهر من قرميدها الأرجواني سوى حافات المداخن.

تمنيت ساعتها لو أن حديقة جدي اختزلت العالم، وأن الثلج لم يكن مجرد غطاء أبيض تفترشه الأرض، إنما كان قصائد تمجد الإنسان، وتزيد كبرياء فرنسا علوا كما يقول جدي.

لا أجد مبررا مقنعا يجعلني أقبل كأعمى كل ما يقوله جدي عن فرنسا وتاريخها.

في مدرسة الموسيقى تعرفت إلى طالب جزائري، كان يدرس الموسيقى الكلاسيكية. ولم يكن من ذلك النوع الذي يندمج بسرعة كبيرة في كيانات أخرى. اسمه مصطفى، وهو كما قال لي ابن عامل في شركة الكهرباء، تم اختياره ضمن خمسة طلاب

لدراسة الموسيقى العالمية، اثنان في روسيا واثنان في فرنسا وطالبة في إيطاليا.

لم يكن مصطفى يحب الحديث عن فرنسا وتاريخها في الجزائر، ويتجنب كل إشارة إلى ذلك، لكنني لم أتردد في إثارة الموضوع معه، ونحن في مطعم المدرسة:

- أبي قتل في الجزائر وكان عسكريا..
- وأنا أيضا لي شقيقان سقطا شهيدين في الجزائر.. وليس في فرنسا.
- أمنيتي الوحيدة هي العثورعلى قبر أبي في منطقة سوق أهراس.
- لا أنصحك بأن تفكر في الأمر قبل ثلاثين أو أربعين عاما.. الدم لا يزال ساخنا.
- أعرف.. لكن لا ذنب لي فيما حدث.
- ذنبك أن لك أبا عبر البحر ليقتل جزائريين لم يعلنوا عليه الحرب.
- أعرف.. وأنا لا أريد أن أخوض معك في نقاش أخسره مسبقا.
- والحل أن تصبر طويلا..
- أعرف أيضا هذا الأمر.. وأعرف أنني لن أغير مجرى التاريخ.
- يكفي أن تغير اتفاقيات إيفيان جزءا من هذا التاريخ الذي بقدر ما يهرب منه حكام فرنسا يتواضع أمامه الجزائريون.

لم يكن مصطفى كثير الكلام، غير أن له ردود فعل غير محسوبة، تصل أحيانا إلى الحد الذي يقلب فيه المكان إلى معركة. فقد حدث في أولى أيام

حـــرب الأيام الســـتة بين العرب وإســـرائيل، أن دخل قاعة التدريب على البيانو وآلات الإيقاع الكلاسيكية، فلما رآه ســـالمون وجوشوا، وهما فرنسيان يهوديان، راحا يرقصان ويقومان بحركات مسيئة للعرب، ولم تصـــدر عن مصطفى أي حركـــة تنبئ بقلقه، إلى أن استفزه سالمون:

- إيه.. لماذا لم تلحق بهم في جبهة القتال؟

- .....

- لا ناصـــر ولا غيـــره.. كلهـــم يركلـــون علـــى مؤخراتهم.

- .....

- في باريس لا نتعلم الموسيقى.. بل نتعلمها في تل أبيب على يد الموسيقار موشي دايان.

كنا نتابع المشـــهد وكأننا في مسرح، ولم تمض ثوان حتى أمســـك مصطفى بكرســـي خشبي ورمى به ســـالمون، فأوقعه أرضا، ولم يكتـــف بهذا بل راح يركله على كامل جســـمه، ولم نجرؤ على التدخل، حتى جوشوا تراجع إلى الوراء.

ولم يتوقف مصطفى عن ضرب سالومون، بل أمسك به، وكان قوي البنية، ثم أداره نحو منصة التدريب، وصار يضربه بعنف على مؤخرته، وهو يصرخ:

- الآن أعلمك الموســـيقى يا ابـــن الزانية.. الآن.. وليس في تل أبيب.. يا لقيط.

كنا أعجز ما يكون، عن أن نتدخل لفض الشـــجار. فقد شـــعر بعضنا أن سالمون هو من استفز مصطفي لكونه عربيا، فآثرنا الحياد، وأحجم جوشوا عن الذهاب بعيـــدا بعد أن رأى غضـــب مصطفى وهو يتحول إلى

وحش كاسر في لحظة انفعال، ولا يمكن إيقافه.
ظل مصطفي يركل سالمون، ويدفعه بقدمه نحو البيانو، وهو يكرر:
- اليوم أعلمك.. اليوم يا كلب.
ثم بصق في وجهه مرات عديدة، ونظر إلينا باستخفاف، وكأني به يقول لنا "أنهيت فعلتي" وخرج بهدوء. ولم يعد منذ ذلك اليوم.
علمت من مامادو المالي الذي كان يقاسمه الغرفة أنه عاد إلى الجزائر، وأقسم ألا تطأ قدماه فرنسا، ولو وضعوا برج إيفل في يمينه وقوس النصر في شماله، ووضعوا على رأسه تاج لويس العاشر.
منذ تلك الحادثة فهمت لماذا فشلت فرنسا في الاحتفاظ بالجزائر. وأدركت أن أمثال مصطفى كثيرون، ويحسنون ركل الآخرين من الوراء بأرجل خشنة.
أحسست بيد تداعب شعري وأنا أتأمل الثلج يغطى حوض الماء القديم في حديقة جدي. التفت فإذا بها أمي، كانت عيناها تلمعان، وقد غطت رأسها بمنديل أحمر.
لم أر أمي في مثل هذه الحال منذ بلغها خبر مقتل أبي.
كانت تكلمني بعينيها. ما أبشع الألم وما اجمل عينيك يا أمي!
لاحت من نافذة مكتب جدي ملامح وجهه. كان ينظر إلينا، ويبكي. كنت أعرف أنه يبكي كطفل. هو يعرف لماذا، وأنا كذلك، وأمي تعرف كل شيء، لكنها لم تقوَ على قول أي شيء، حتى تلك الكلمة

التي قالتها قبل عشـــر ســـنوات. كلمة "دعه" عندما سقط في غرفتها ذات ليلة.

فعلتها يا جدي، لأنك لم تكن تعرف شـــيئا ســـوى الحرب. تلك طبائع أصحاب البزات الرمادية.

شعرت أن البرد شديد، فأمسكت بيد أمي، وعدنا إلى داخل البيت. أبصرت على ســـرير غرفتها صورة أبي داخل برواز أرجواني. وضعتها على يمينها. هي تحبه، ولم تنســـه بعد تلك السنوات التي تغير فيها العالم، قتلوا كينيدي، وكادوا يوقعون العالم في حرب بين أمريكا وروسيا بما أطلقوا عليه أزمة خليج الخنازير بكوبا وحكاية الصواريخ الموجهة شرقا وغربا. وفي هذه الفترة كنا نســـمع كثيرا عـــن يوري غاغارين رائد الفضاء الروســـي الذي مات في مقتبل العمر في حادث سير، شأنه في ذلك شأن مارلين مونرو الفاتنة الأمريكية التي قيل إنها انتحرت. وكنا لا نمل سماع أغاني البيتلز وقليل من الأغاني الفرنسية الجميلة.

كان الفرنســـيون فـــي حيرة بعد الهبـــوط الكبير للقيمة السياسية للجنرال ديغول، فجدي كان يقول لـــي "إن نجم الجنرال بدأ في الأفول". ولا يتردد في القول "ترك الجزائر فخرج من التاريخ".

عدت إلى غرفتي، وفتحت رسائل أبي. وكنت أشعر وكأنني أجالسه، وأبادله الحديث.

فتحت رسالة أخرى كتبها بتاريخ 27 نوفمبر 1954. كتب فيها:

إلى أبي العزيز

وإلى روح أمي الطاهرة

حاليـــا أنا في منطقة بالصحراء اســـمها المنيعة. هي

ســـاحرة وجذابـــة، وأهلها طيبون، لكنهـــم لا يحبون أصحاب العيون الزرقاء مثلي.

لا تصلنا أخبار التمرد الذي وقع في منطقة الأوراس، وجهات أخرى في الشـــمال. نســـمع أخبارا تقول إن المتمردين من الجزائريين ينتمون إلى تنظيم مسلح اسمه FLN يتحركون ليلا يهاجمون الثكنات ومراكز الدرك والشرطة، ويعتدون على الفرنسيين.

في المنيعة، لم نر هؤلاء المتمردين، لكن ميشـــال بارني، صديقي المكلف بإدارة الشـــؤون المدنية، قال لي إن حديث الناس في المقاهي والجوامع والأسواق لا يخلـــو من كلمة FLN وحذرني مـــن التعامل مع العرب عن قرب.

لا أريـــد أن أضعكم في حيـــرة، ولكنني أطلب منكم الدعاء لي بالسلامة. أحبكم.

أبـــي قبل جبيـــن أنطوان بحـــرارة. وقـــل لكاترين سأعود.

جان بيار.

تحسســـت جبيني، الذي دبت فيه حـــرارة مفاجئة، وكأن روح أبـــي تلامس جبهتي وتطبع قبلة أخرى. أبي الذي لا أذكره إلا في الصور.

وأسلمت رأسي للنوم.

2

في عيد ميلادي التاسع عشر. لم يتغير أي شيء. جدي هو جدي، لا يمل الحديث عن فرنسا ومجدها. بل أكثر من هذا لا يعجبه زعيم الفيتنام التاريخي هو شي منه، ويقول باستهزاء كبير "حتى كناس الشوارع صار عظيما". وأمي كاترين، كعادتها، لا تبرح مكانها. لا تختلف عن المومياء. أما جانيت الخادمة فإنها، أشبه بملاك يحرس البيت من الشرور.

قالت لي جانيت وهي تطفئ الشمعة الأخيرة في الكعكة التي أعدتها لي مثلما تفعل كل عام "في كاتدرائية أميان، راح القس يلقي أمام الحاضرين عظاته، ودعا جان بيار وكاترين إلى أن يقبل الواحد منهما الآخر أمام الشهود إعلانا لرباط مقدس طول العمر.. ففعلا، وكنت حينها أشتغل في معمل للخياطة، وأحضر كل أحد القداس الذي تقيمه الكنيسة. كان يعجبني الأب دي كافيللي، هو من أصول إيطالية، فر من بطش موسيليني، والتحق بأميان التي أحبها وتعلق بها كثيرا".

كانت جانيت تكلمني، دون أن تنظر إلي. ترفع رأسها قليلا للتعبير عن موقف فيه مرارة، أو تحنيه إذا ما تعلق بموقف فيه عاطفة وحرارة.

قالت لي "ليتك كنت معنا ذلك اليوم.." فأضحك وأرد عليها برومانسية غريبة "كنت موجودا أسفل الجسر الحجري.. مخبأ في قلبي كاترين وجان بيار". فتضحك جانيت وتقبل جبيني. وتواصل سرد قصة زواج أبي: "الغريب أن الزواج تم قبل أن يتخرج أبوك من الكلية العسكرية، وتلك رغبة جدك. كان يوما مشهودا في أميان.. لأن مكانة جدك الكبيرة في أوساط عائلات أميان الأصيلة، جعلت منه ملكا غير متوج.. فهو بطل في عيوننا جميعا. كل الناس يحبون سماع حكاياته في جبهات القتال. ولم يكن على توادد مع بعض رؤساء بلدية أميان، حيث كان يصفهم بالضفادع. بعد الزواج، انتقل أبوك وكاترين لقضاء شهر العسل في إسبانيا، وحين عادا لم يبق جان بيار طويلا في أميان، والتحق بكتيبته في تولون لحضور مراسيم التخرج، وانتظار قرار الحكومة الفرنسية بإرساله إلى شمال إفريقيا حيث بلغت الأوضاع درجة مقلقة. ولعل أسعد الناس بانتقال جان بيار إلى الجزائر هو جدك الذي دعا عددا من رفاقه إلى وليمة في حديقة بيته وظل يرقص حتى آخر الليل".

ارتشفت جانيت قليلا من الماء، وواصلت سرد قصة أبي، بينما كنت أرسم تلك الرحلة في مخيلتي بتفاصيلها.

- "كانت أمك حاملا في شهرها السابع عندما

وصلتها الرسالة الأولى من جان بيار يخبرها بأن وحدته انتقلت للعمل في الصحراء.."

قاطعتها بأنني اطلعت على تلك الرسائل...

- ولكنك لا تعرف لماذا صار اسمك أنطوان؟

- لا أعرف..

- والسبب بسيط، أن جان بيار كان معجبا بضابط التدريب في تولون واسمه أنطوان فقرر منحك اسمه..

- لو أن المولود كان أنثى هل كان يطلق عليه اسم أنطوانيت؟

- ومن تكون أنطوانيت؟

- أقصد الملكة ماري أنطوانيت.

- لا أعرفها.

وواصلت جانيت حديثها عن تلك المشاعر التي تملكتها عندما شاهدت عمي جول وهو يتوكأ على عصا، بعد أن فقد رجله اليمنى في انفجار لغم بمدغشقر.

- كان وسيما جدا. لا يرى إلا مبتسما، وحين تجرأت وسألته، إن كان يشعر بالندم لاختياره الجيش، قال لي أنا مستعد لأفقد الرجل الأخرى في الجزائر، وأضاف لا تنس أن هذا البيت ليس إلا ثكنة غير معلنة في جيش فرنسا..

سكتت جانيت بعد أن لمحت ظل جدي يقترب من الباب، وأحنت رأسها، خوفا منه، بينما كنت أتأمل خطوات جدي المتثاقلة وهي تطأ عتبة الغرفة:

- أكملي القصة يا جانيت.. قولي لأنطوان كل شيء. قولي له إنني عسكري مهزوم، وأن أباه ما

كان ليدخل الجيش لولا أنه رآني أعود مهزوما من جبهات القتال بألمانيا.. ولا تغرنكم النياشين التي أزين بها صدري فهي لا تمنح للمنتصرين، لأنهم ليسوا بحاجة إلى من يصفق لهم.. بل تمنح لأمثالي أنا ممن كانوا بحاجة إلى من يرفع معنوياتهم المهتزة.. لم نكن أبطالا قط . إن خوفنا من التاريخ جعلنا نصنع المجد المزيف.. قولي له يا جانيت فهو لا يعرف شيئا عن جده. قولي له إنني لم أكن جنرالا ولا حتى عقيدا، لأقود جيشا أو حتى كتيبة.. قولي له.

ثم جلس على كرسي خشبي، ولم يقل بعدها كلمة. ناولته جانيت كوب ماء.

- لا يا سيدي.. ليس صحيحا ما قلت، لماذا تحاول أن تجعل من نفسك بيتان آخر.. أنت آخر جنود فرنسا الأوفياء.

وأمسكت بيده ثم رافقته إلى غرفته التي تزينها صوره الكثيرة ونياشينه، وقبعاته المنمقة، حيث يحب النوم قريبا من شباك يطل على الحديقة.

لم تعد جانيت. ذهبت هي الأخرى إلى غرفتها. بينما بقيت وحدي في الغرفة أتامل ما تبقى من رسائل أبي، وأيامه في الجزائر.

رسالة من أبي إلى جدي.

إن أميناس 29 سبتمبر 1957

أبي العزيز

إلى روح أمي الطاهرة

أكتب لك وأنا أشعر وكأنني أعيش في الجحيم. فدرجة الحرارة لا تقل عن 45 درجة، ومحظوظ من

عثر على مترين من الظل البارد.

إنني في هذه المنطقة منذ أربعة أشهر أشرف على حراسة آبار البترول التي تم اكتشافها في مطلع العام 1956 بمنطقة إيجلاح، حيث شرعت شركة تنقيب فرنسية في ضخ كميات هائلة من البترول. ولعلمك يا أبي فإن الصحراء تم تقسيمها إلى أربع مناطق لكل واحدة هيئة تشرف على تسييرها. ولا أخفي عليك أن العمل بالصحراء بقدر ما هو شاق فإنه يبعث في أمثالي الاعتزاز بخدمة بلده وشعبه، هكذا تعلمت منك. ولعل الشيء الذي لفت انتباهي، يا أبي، هو أن الفرنسيين، لم يعد يقلقهم أمر ما يحدث في الشمال من مناوشات بين المتمردين والسلطة الفرنسية، قدر تعلقهم باكتشاف البترول، وقد سمعت من قائد عسكري زارنا منذ أسبوع قوله "ما دام البترول موجودا فلتبق الحرب مائة عام".

أصدقائي يطلقون علي "شاعر الصحراء" لأنني لا أتوقف عن الكتابة. ويسعدني أن أبعث لك بنص صغير عن البترول، أرجو أن يعجبك:

حين أنظر إلى وجوههم
لا أرى عرقا أبيض
السواد يغطي المكان
لكنهم يبتهجون لرؤية البترول
يصعد إلى أعلى كأنه نخلة من ماء
ويصرخون كل مرة
كنا ننظر إليهم بإعجاب
وفي آخر اليوم
أصرخ أنا وأقول

يحيا البترول.. تحيا فرنسا
أبي لقد اشتقت إلى ابني أنطوان، وأمه كاترين، ولن أوصيك بهما. وأخبرك أنني طلبت منحي رخصة لزيارتكم في أعياد الميلاد القادمة، لأنه صار من حقي بعد ثلاث سنوات أن أزوركم.
تقبلوا تحياتي

ابنكم الذي يحبكم كثيرا
جان بيار

كنت أرى في كل رسالة ذلك الحضور الطاغي لجدي، إذ إن أبي مدين في كل ما يكتب لحياة جدي، ورغم الحياة القاسية التي كان يعيشها بعيدا عن عائلته الصغيرة، قريبا من موت مؤكد، فإنه يحمل باستمرار ذلك الامتداد الروحي لجدي الذي زرع فيه عقيدة عسكرية، يمكن اختزالها في أن العالم تشكله فرنسا أولا ثم ما تبقى من شعوب.

ويحضرني موقف عشته مع جدي عشية الاحتفال بذكرى 14 يوليو، وهي بالمناسبة يوم مقدس لأمثال جدي، وفي حوار ساخن مع بعض العسكريين المتقاعدين قال جدي:

- أرى أنكم ما زلتم تعتقدون أن ديان بيان فو كانت هزيمة لنا..

- طبعا.. لا يمكننا إخفاء الشمس.

رد جورج المعروف في شوارع أميان بالمقاوم، بأعصاب متشنجة.

- فرنسا لم تنهزم.. هي التي شاءت أن تخرج.

رد عليه جدي في ثقة عالية.

- لـــو كانت قـــادرة علـــى البقـــاء لما فكـــرت في الخروج.

أضاف جورج بهدوء بالغ.

- وهل تعتقد أن معتوها مثل جياب قادر على هزيمة جنرالات تخرجوا في سان سير.

قال جـــدي وقد بدت عليه علامات القلق مما يقوله جورج.

- لكنه هزمهم فعلا..

قالها فرانســـوا مارياني المعروف في أميان بالأعرج.

لكن جدي لم ينتظر للرد عليه بعنف:

- أنت تقول هذا.. لأن فيك شيئا من الفاشيست.

فانفجر الجميع ضاحكين إلا جدي الذي ارتفع ضغط دمه، وصار يصرخ في وجوه أصحابه، وهم لا يتوقفون عن الضحك، وضرب الأيدي بعضها ببعض.

الآن فهمـــت لماذا كان جدي يهاجم أعداء فرنســـا، أو من يخدشون حياء تاريخها. وحدث أن رأيته مرة يمســـك بكتاب جان بول سارتر "عارنا في الجزائر" ويقول "هذا الحثالة النتن.. جعلوا منه كاتبا كبيرا، وهو عار فرنســـا في كل تاريخها" ثم يرمي الكتاب على الأرض ويدوسه بقدميه إلى أن يمزق أوراقه ثم يلقي به في سلة المهملات.

في مســـاء أحد ماطر دعتني ماري روز إلى حضور حفل نهاية العام الدراســـي. كان ذلك في الأســـبوع الأخير من شهر أغسطس 1972 . وكانت صحة جدي معتلة جدا، وأمـــي على حالها، بينمـــا كانت جانيت وحدهـــا تتحرك بين الغرفتين، في صمت، وتخدمهما بحب كبير.

التقيت ماري في مدخل المدرسة. كانت أجمل من ذلك اليوم الذي قضيته معها في حانة الرجل ذي الشوارب وعاشق بايرون.

- تأخرت دقيقتين..

قالت ماري وهي تمسك بيدي وتجرني خلفها كخروف وديع، لتوصلني إلى كرسي في الصف الأول من قاعة الحفل التي زينت بكثير من الورود والأضواء الملونة.

ما إن جلست حتى نودي بصوت عال "قفوا لنشيد فرنسا.. المارسييز".

وقفنا جميعا. تمنيت ساعتها لو أن جدي كان معنا. إنه يحب كثيرا هذه المواقف.

كان يقف إلى جانبي شاب أصلع، يضع نظارات طبية، بدا لي وكأنه غير مكترث لسماع النشيد، فقد كان يحرك رأسه يمينا ويسارا. وما إن جلسنا حتى قال لي:

- لم يبق إلا أن نستمع إلى نشيد المهزومين.. هم يقتلون الأبرياء في ميونيخ.. ونحن نقف كالموتى لسماع المارسييز.
- ماذا تقصد؟
- فعلها الإرهابيون العرب في المدينة الأولمبية بميونيخ.. قتلوا عددا من الرياضيين الإسرائيليين الأبرياء.
- لا يعنيني ذلك في شيء..
- أنا يهمني ذلك.. هل تريدني أن أتنصل من يهوديتي.
- نحن في حفل مدرسي..

- ليكن..
- وما تتحدث عنه وقع في ميونيخ..
نظـــر إلي وكأنني المســـؤول عما حـــدث في ألعاب ميونيخ الأولمبية، ثم أشـــاح بوجهه عني، بينما أطلت ماري روز من وراء الستار لتعلن بدء الحفل.

قالـــت ماري "اســـمحوا لي في البـــدء أن أقرأ نصا شـــعريا لم أكتبه أنا ولا ينســـب إلى بول إيلوار ولا لويس أراغون.. إنه لرجل فقدته فرنســـا قبل ثلاثة عشر عاما في الجزائر.. كان محاربا هناك. أنتم لا تعرفونه، لأنه لم يكن شـــاعر المحافل والصالونات.. اسمه لا يعني شيئا بالنسبة إلى كثير منكم، لكنه يعني لابنـــه الجالس في الصـــف الأول، الرابع على اليمين، الشيء الكثير.. وأعني الشاعر جان بيار مالو.. وابنه أنطوان.. أما الجد فليس إلا أوليفييه مالو العسكري الذي تحبه أميان وفرنسا.".

فاهتزت القاعة بالتصفيق. فهمت لحظتها أن ماري روز كانت تعد لمفاجأة لي. كانت مفاجأة حقا. ثم أكملت ماري كلمتها.

يقـــول جان ماري في قصيـــدة عنوانها "الريح التي تحملني إلى أميان":

للعصافير التي تأتي من الشرق
عطور ونسائم
وأنا في هذه الصحراء وحدي
مربي سرب حمائم
لا أرى شيئا سوى ظلي
وفي الصبح خياما وعمائم
لا أرى أميان

ولا شارعها الممتد في أقصى عيوني
لا أرى شيئا سوى صمت جفوني
تلك أميان التي أحببت
أين كاترين التي أعرف؟
لا ألمحها في هذه الصحراء
يا طير المسافات
أنا المشتاق للأهل وللأحباب
خذ مني سلامي
وقليلا من كلامي
ودموعي..
لأبي
لابني
لكاترين
لأميان التي أحملها في دفء روحي
إن أنا مت فلا تنسوا عظامي..

وبكت ماري روز، وبكيت معها، بينما كان الحاضرون يهتفون "عاش جان بيار الشاعر.. عاش جان بيار البطل" فأحسست في تلك اللحظة أن أبي لم يكن رجلا عاديا.. بل كان واحدا من عظماء فرنسا الذين تملأ أسماؤهم الشوارع والساحات. ولم يكن لأبي اسم وتاريخ محفوظ في زاوية ما. ماري روز هي التي أعادت لأبي تاريخه. صرت أحبها أكثر وأكثر. وقررت لحظتها أن أبحث عن رفات أبي في الجزائر.

آه يا جدي.. تمنيت لو كنت معنا. أنت الذي تهزك مثل هذه المواقف، أنت الذي ترفع رأسك في كبرياء عندما تذكـــر ابنيك جول وجان بيار. أنت يا جدي الممتلئ بحب فرنسا.

لم أعد أذكر من ذلك الحفل المدرسي سوى تلك القصيدة التي أخبرتني ماري روز أنها عثرت عليها في أرشيف أبيها المعلم المتقاعد، وعندما سألته كيف حصل عليها أجابها "جان بيار كان صديقا لي.. اختار الخدمة في الجيش بينما فضلت العمل في سلك التعليم، ورغم فارق السن بيننا، كنا نتواصل بين الحين والآخر.. ولم أشأ أن أخبرك بهذا حتى لا يكون جان بيار مدعاة لتعلقك بابنه أنطوان..".

لم تكن ماري روز تذكر من طفولتها سوى تلك الحياة القاسية بفعل سلوك أبيها العنيف تجاه أمها، لكنها صارت تتحدث عنه في آخر عمره وكأنه قديس أو ملاك. فذكرت لي أنه توقف عن الشرب، وصار يداوم على القداس، ويقرأ كثيرا، ولا يحب لقاء الناس، ويعمل على مساعدة الفقراء. كأنه يشعر بالندم. حتى أنه كان يستعير من راهب الفقراء الأب بيار قوله "عندما نضع يدنا بيد الفقراء نجد يد الله تمسك بيدنا الأخرى".

هكذا تقول ماري روز، فأرد عليها بمقولة سمعت جدي يرددها دائما، إذ قال لي مرة "اسمع حكمة رهبان فرنسا في صحراء الجزائر. يقول شارل دي فوكو "بقدر ما نعرف الآخر نحبه..". ثم يضيف كعادته "إلا من يعادي فرنسا".

كانت أجمل نساء أميان، وكلما أثنى عليها بعض من حضر الحفل ازداد وجهها احمرارا، فأكتشف جمالها الدافئ عن قرب.

سألتها على حين غرة:

- هل تعرفين بايرون؟

فردت ضاحكة:
- لا.. لكنني أعرف حانة بايرون.
- ما رأيك في كأسين من شعر بايرون..
- إن كان هنـــاك من يرفض بايرون فليس أمامه إلا أن يكتفي بخمرة الشعر..

لـــم يتغير فضـــاء الحانة. وصاحبها لم يغير شـــكله والعبث بسيجارته، وابتسامته الخبيثة.

قضينا أكثر من ساعتين، استعدنا فيها كل حكاياتنا القديمة. ولم نشرب حتى الثمالة، لأن عيني صاحبنا كانت ترمقنا من وراء المحسب.

نظرت إلى الساعة كعادتها. ففهمت أن ماري روز ترغب في الخروج من الحانة. وخرجنا.

مشينا طويلا. ولم يكن الأمر يسيرا علي لأعرض على مـــاري روز الزواج بعد عام من ذلك اليوم الجميل. ولم تمانع، بل إنني أحسســـت أنها كانت تود ســـماع ذلك مني.

رافقـــت ماري إلى بيتها، وعدت إلى بيت جدي. ولم يكن الباب مغلقا. دفعته بيدي، فأبصرت جانيت جالسة في ردهة البيت، عيناها شاخصتان في السقف.

- ماذا حدث؟
- جدك..

واندفعت نحوي تحضنني.

أســـرعت نحو غرفـــة جدي. كان البـــاب مفتوحا، وضوء خافت يغطي السرير.

مات جدي.

أمي جالســـة أرضا تمســـك بيد جدي الممدد على سريره الخشبي العتيق.

كانت صامتة كعادتها، سوى سيل من الدموع يغسل وجنتيها الذابلتين.

بقيت واقفا، أنظر إلى وجه جدي الذي ازداد بياضا. كان مغمض العينين، ويده اليمنى على صدره.

تقدمت نحو أمي، وجثوت علـــى ركبتي، وأنا أتأمل ملامح وجه جدي الغائرة في الموت.

سحبت أمي يدها من يد جدي واحتضنتني بحرارة، وراحت تمسح وجهي بلطف.

ولم أشـــعر إلا وأنا أنكب على جسد جدي، وأصرخ: "مســـتحيل.. مســـتحيل أن ترحل دون أن أراك تودع فرنســـا التي أحببت.. مســـتحيل يا جدي.. أنت الذي علمتني كل شـــيء.. ليتك كنت معي هذا المســـاء وعرفـــت أي رجل ولدت.. جان بيـــار الذي رفعت له أميان القبعات. ليتك كنت معي هذا المساء. أنت يا آخر العظماء. ليتـــك بقيت لتعقد قراني على ماري روز. ليتك بقيت لأعزف لك آخر سيمفونيات شوبان وكل الذيـــن تحب. ليتك لم ترحل يا جدي قبل أن أســـمع منك حكاية أبي قبل موته.. ليتك يا جدي.. انظر هذه أمي كاترين تجلس حزينة بجانبك.. هي لم تكرهك أنت، بل كانت تكره الحرب.".

كنت أبكـــي، وأعرف أن جدي لا يســـمعني. لكنني كنت أكلمه كما لو كان حيا.

دخلـــت جانيت، وأمســـكت بيد أمـــي، ورافقتها إلى غرفتهـــا، في حين بقيت أتأمـــل وجه جدي وأقول له "لم يبق لي بعد رحيلك ســـوى هذه الجدران أسترق منها شيئا من ذاكرتك الجميلة..".

لـــم أنم تلك الليلة. ظللت بقرب ســـرير جدي، لا

ثالث لنا إلا الصمت والحزن والفجيعة.

في الساعة الرابعة صباحا، دخلت جانيت حاملة كوب ليمون.

- أنت متعب..

وأعطتني الكوب، ثم خرجت دون أن تنتظر مني جوابا.

كانت في أقصى حالات الحزن. هي المرأة التي اختزلت كل ما في البيت. ليست من أهل مالو، لكنها كانت واحدة منهم، بأحاسيسها وخدمتها المخلصة للعائلة.

بعد نصف ساعة، خرجت من غرفة جدي، واستلقيت منهكا تحت شجر الصفصاف التي تتوسط الحديقة، وكان يطلق عليها جدي اسم "شجرة المجد" وأحيانا يقول لنا "إن طول الشجرة يذكرني بالجنرال ديغول".

كنت أفكر فيما سيأتي. أبي مات في حرب الجزائر، وأمي حية لكنها في عداد الأموات، وجدي لم يعد من هذا العالم. وحدي سأظل حاملا اسم عائلة مالو. مالو التي منحت أعمارها لفرنسا.

لمحت جانيت قادمة بخطى متثاقلة جدا، فاستويت. جلست بقربي دون أن تكلمني، ثم أعطتني ظرفا مغلقا.

- هذه وصية جدك..

- وصية؟

- ائتمنني عليها قبل شهرين..

- كان يعرف..

- وكان يتمنى أن يراك تقود جوقا وتعزف أمامه ما يشتهي من موسيقى شوبان..

ما إن فتحت الظرف حتى أسرعت جانيت بمغادرة الحديقة دون أن تقول شيئا.

أوراق صفراء، وكتابة بالحبر الأرجواني. وصورة تجمع كل العائلة، يتوسطها جدي الذي كان يجلسني على ركبته اليمنى.

كتب جدي:

"عزيزي أنطوان.

أعرف أنك لن تقرأ هذه الرسالة إلا بعد رحيلي. وأعرف أنك لم تعرف من جدك سوى أنه ولد يتيما ولم يكن له أب أو أم سوى فرنسا، لهذا أحبها حتى الموت.

أريدك يا حفيدي العزيز أن تعرف قصة جدك أوليفييه مالو شفافة كبياض عيونه، صادقة كخفقان قلبه.

عندما ولدت في خريف 1893 لم تكن أميان كما تراها اليوم.. ولم يكن الناس بمثل هذا الجحود المقيت. كانوا يحبون بعضهم بعضا، ولا ينامون إلا سعداء.

أميان المدينة التي ارتبطت بالتاريخ والفكر الملهم للبشرية، أنت تعرف من يكون جول فيرن الرجل الذي رأى قبل مائة عام ما يعيشه العالم اليوم، رجل يؤمن أن الحلم ليس مستحيلا، رجل أحب أميان فخلدته في ذاكرة أبنائها وشوارعها، ويزوره أبناؤها الشرفاء كل يوم في مقبرة "لا مادلين" ويذكرون كل ما قدمه لمدينتهم. وأذكر أنه كتب مرة يقول:

"كانت رغبة من زوجتي حين أقمت بأميان، هذه المدينة الحكيمة، اللطيفة، ذات المزاج الرائق، والمجتمع الودود والمثقف.

كنا قريبيـــن من باريس، ونمتلـــك القدر الكافي للتأمل، بعيـــدا عن الفوضى التي لا تطـــاق والغليان العقيم..

وحتى أقول كل شيء، تظل قمة سان ميشال ملتصقة بكروتوا..".

رأيته مرة واحدة ولم أكن بلغت السادسة، أو هكذا يتهيـــأ لي. كان رجلا بديعا. ولـــن أذكر يا أنطوان جيل فيـــرن فقط، فهناك الكاتدرائيـــة العظيمة التي نســـمع فيها أنات المســـيح، ونبكي فيها عندما نرتكب الخطيئة فنطلب الغفران.

ولن أنســـى متحف البيكاردي الـــذي يختزن تاريخ فرنســـا كله. ولن أنســـى برج بيري الواقف شامخا مثل فرنســـا ومثلي ومثلك. إنها أميان التي تمنحنا السعادة وحب فرنسا الأبدي.

أبي باتريـــك كان يعمل حارســـا للغابات، وأمي تشـــتغل في معمل للنســـيج. لم يكن لـــي إخوة، ولم أعرف أعماما. نشـــأت مثل أطفال أميـــان، بعيدا عن الطيـــش والانحراف، إذ كنت أحضر قداس الأحد في كنيســـة أميان، وأسمع عظات الأب ريمون الذي زرع في نفسي حب المســـيح، وأحببته بعده الأب القديس شـــارل دي فوكو الـــذي أردد كل صباح قوله (حبة الحنطة إن لم تقـــع في الارض وتمت، بقيت وحدها، وإن ماتـــت، أتت بثمـــار كثيرة. إني لـــم أمت بعد، لـــذا فانا باق وحدي... صل من أجـــل اهتدائي ، لكي أحمل ثمـــارا إذا ما متّ). وهي الكلمـــة التي دفعتني إلى أن أختـــار الطريق الوعر، لأعيـــش حياة الموت لتكتب لي الحياة، وانخرطت في الجيش ولم يتجاوز

عمري التاسعة عشرة، ولم تمض سنتان حتى وجدت نفسي على جبهة الموت، إثر اندلاع الحرب العالمية الأولى، وفهمت حينها أن الحرب هي اللعنة التي حلت بالإنسان بعد رحيله من الفردوس. إننا أبناء اللعنة يا أنطوان. منحت وسام الشرف في حفل أقيم في ساحة النصر بباريس، واعتقدت يومها أن رحلتي مع المجد بدأت. وقبل نهاية الحرب، تعرضت لإصابة في الساق، أبقتني بعيدا عن الجبهة، أربعة أشهر، تعرفت فيها إلى فيرونيك الممرضة التي اعتنت بي، ولكنها وقعت في شباك جدك يا حفيدي، وتزوجتها بعد نهاية الحرب، وفي العام نفسه فقدت أمي بعد إصابتها بالسل، بينما اختار أبي زوجة أخرى وأقام معها في مارسيليا، وانقطعت بيننا السبل إلى أن علمت بموته في العام 1937 دون أن أعرف السبب.

نشأت كما قلت لك يتيما، ولم تكن لي عائلة سوى فرنسا والبزة العسكرية التي تتبعني وأتبعها كظل وفي. ففي العام 1923 كلفت بإدارة مخازن الإمداد العسكري في كورسيكا، وهناك أنجبت ماريان طفلتي الأولى، وكانت فيرونيك تعتني بها كما لو أنها أجمل طفلة على وجه الأرض، لكن وباء غريبا حل بالجزيرة أودى بحياة عشرات الأطفال، كانت ماريان واحدة من ضحايا ذلك الوباء اللعين، ولا يمكنك تصور الحزن الذي سكن قلب فيرونيك، وقلبي أيضا، لكن رباطة الجأش وحدها كانت تمنعني من أن أبدو أمام فيرونيك رجلا رقيقا جدا، فكنت أواسيها بقولي (لم تكن ماريان الضحية الوحيدة للوباء) ولولا أنها كانت تشتغل نهارا في عيادة تابعة للبلدية ما نزعت

عنها ثوب الحداد. وانتظرنا تسعة أعوام لنرزق جول، وأسميته جول تخليدا للكاتب الذي خلد أميان وفرنسا جول فيرن، وفي هذه الفترة تمت ترقيتي إلى نقيب، وكلفت بمهمة إدارة الصيانة بالعاصمة السينغالية داكار، ولم أنجح في إقناع فيرونيك في الإقامة معي في هذه الأرض الإفريقية، ورغم أن المسافة بين أميان وداكار لا يمكن قياسها، فإن أخباري كانت تصل فيرونيك كل أسبوعين، وتصلني أخبارها ووكذا أخبار جول. وفي داكار بدأت أستكشف عوالم إفريقيا، وأعرافها وتقاليدها، وكنت أتردد على مساجدها، التي يكثر روادها، وهم من أتباع الطريقة التيجانية، ولا يمكن التعامل معهم إلا من خلال هذه الطريقة الدينية ذات التأثير السحري، ولا أخفي عليك أنني اضطررت إلى التظاهر بأنني من أتباع الطريقة حتى أحصل على ثقة أعيان البلد بما يبعد عنا أي شكوك، ولا يقاومنا السينغاليون.

بقيت في داكار سنتين، وهناك بدأت أستكشف سر الكتابة في المسرح، إذ قمت بتأليف عدد من المسرحيات التي أنجزها جنودنا في داكار منها مسرحية (الجندي ذو الحذاء المثقوب) التي حققت نجاحا وشهرة كبيرين، وكانت وراء ترقيتي إلى رتبة رائد، وفكرتها تتناول قصة جندي قصير القامة، لكنه ثرثار، ويتسبب في كثير من المشاكل التي تدفع قادته إلى معاقبته كل مرة، فقرر في النهاية التوقف عن الكلام لمدة شهر، وعمد إلى ثقب حذائه تعبيرا عن رغبته في الكلام، فعوقب مرة أخرى.

عدت إلى أميان في أعياد الميلاد، وقضيت أياما لا

تنسى مع فيرونيك وابننا جول الذي التحق بالمدرسة الابتدائية لأميان، وكتبت لأجله مسرحية (الديك وشجرة التوت الضاحكة) وأعطيتها لمدير المدرسة الذي قام بمساعدة بعض المهتمين بالمسرح في أميان على تمثيلها، وعرضها في مدارس المدينة.

تم نقلي إلى مدينة وهران عشية الإعداد لاحتفالات مرور مائة عام على ضم الجزائر للسيادة الفرنسية، وهناك تعرفت إلى القس إيميل سان بيار الذي عمق في نفسي حب الأب القديس شارل دي فوكو، وأتذكر أنه كان في كل مرة يروي لي حكايته في محبسه بصحراء بني عباس ثم يبكي طويلا عندما يذكر مقتله علي يد واحد من التوارق في ديسمبر 1916 ويقول بمرارة عجبا لهؤلاء التوارق يكرمون الرجل طويلا ثم يجهزون عليه في إحدى الليالي برصاصة قاتلة. وكثيرا ما كان الأب إيميل يستدل بطيبة العلاقة بين التوارق والأب دي فوكو الذي كان يقول عن التوارق (لقد بحثوا لي عن عنزة لها قليل من الحليب في هذا الجفاف القاتل على مسافة أربعة كيلومترات من هنا. ما كان ألطف الناس تجاهي !). كان نبيلا، وكانوا هم كذلك أكثر نبلا وأخلاقا. لم يكن راهبا كما يعتقد كثير من الناس، بل كان فيه كثير من الأنبياء، إن لم أقل هو مسيح الصحراء.

أنصحك يا أنطوان بأن تقرأ سيرة هذا القديس. ستتعلم منها ما لا تعلمه لك الموسيقى.

لم أشهد احتفال فرنسا بمرور مائة عام على دخول جيوشنا منتصرة في استعادة كرامتها من الداي حسين، الذي اعتقد أن الصفعة التي وجهها إلى القنصل ديفال

ليســت أكثر من مزحة، بينما هــي ثأر التاريخ من قراصنة الباب العالي. اقرأ التاريخ يا أنطوان لتعرف أن أقدار الشــعوب معلقة بسيف حاد وبارودة تمسك بها يد لا تتردد. اقرأ التاريخ لتتعلم.

في العام 1933 أعادوني إلى فرنســا، ملحقا بمكتب قائد القوات البرية، مكلفا بالرعاية الاجتماعية، وهي المهمة التي استكشــفت فيها تبعــات الحرب العالمية الأولى وكان مضى عليها خمسة عشر عاما. ما أبشع الحرب يا أنطــوان ! لكن أمثالــي يحبونها ويحبون الحديث عنها، لأنهم لم يعرفوا شيئا آخر في حياتهم سوى الحرب. لا تلم أمثالي يا أنطوان فهم من طينة أخرى يجــدون متعتهم في ســماع صــوت المدافع والرصاص على سماع إحدى ســيمفونيات موزار أو شوبان أو باخ. نحن هكذا وأنتم كذلك.

فــي الجزائر اقتنعــت أن علينــا أن نحفر كثيرا من القبور لنظل هنــاك إلى الأبد. إنك لا تعرف يا أنطوان، كيف قضيت تلك الليلة التي سمعت فيها أن فرنسا وقعت اتفاقا لوقف القتال مع إرهابيي ما يسمى بجبهة تحرير الجزائر. تمنيت لو لم أعش حتى هذا اليوم. كنت أبكي وحدي في غرفتي، وأقول، الأرض التي ســال عليها دم القديس شارل دي فوكو وابني جان بيار لن نسلمها للقتلة، إنهم لا يعرفون معنى أن تمتلك شيئا ويصير جزءا منك ثم تتنازل عنه كما تتنازل الحسناء عن عذريتها لقاطع طريق.

لن أرهقك يا أنطوان بتاريخ جدك، لكنني لن أرحل إلى الأبد دون أن أبوح لك بســر لــم تصل إليه آذان العفاريت وعيونهم في الشرق وفي الغرب، ولا أريدك أن

تبوح به لغيرك، لأنني لا أريد أن يشمت في الآخرون.

جدك كان عميلا للألمان في الحرب العالمية الثانية، ولم يكن ذلك بهدف المال أو الرغبة في نيل مقاصد، ولكنني اعتقدت أنني أخدم فرنسا بعلاقتي مع بعض ضباط الستازي الألمان، لكنني بقدر ما كنت أعطيهم من معلومات عن الجيش الفرنسي كانوا يقدمون لي معلومات خاطئة عن جيشهم، وعن مخططات تطويره، وانتبهت إلى أنني كنت ذلك الغبي الذي استدرجوه نحو وليمة رأس السنة لكنه دفع الفاتورة وخرج بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها. أتذكر تلك الليلة التي قلت فيها لجانيت، أكملي القصة يا جانيت.. قولي لأنطوان كل شيء. قولي له إنني عسكري مهزوم، وأن أباه ما كان ليدخل الجيش لولا أنه رآني أعود مهزوما من جبهات القتال بألمانيا.. ولا تغرنكم النياشين التي أزين بها صدري فهي لا تمنح للمنتصرين، لأنهم ليسوا بحاجة إلى من يصفق لهم.. بل تمنح لأمثالي أنا ممن كانوا بحاجة إلى من يرفع معنوياتهم المهتزة.. لم نكن أبطالا قط.

إن خوفنا من التاريخ جعلنا نصنع المجد المزيف.. هل تذكر يا أنطوان يوم قلت لجانيت قولي له فهو لا يعرف شيئا عن جده. قولي له إنني لم أكن جنرالا ولا حتى عقيدا، لأقود جيشا أو حتى كتيبة.. قولي له. نعم كنت أقول الحقيقة. لقد ضاعت من عمري ثلاث سنوات، سرقها مني الألمان، وليتني كنت مع الماريشال بيتان، حتى يقول الفرنسيون، لقد أخطأ، لكن الذي أقدمت عليه ليس أكثر من خطيئة تقود صاحبها إلى المقصلة. اعتقدت أنني أخدم فرنسا حين

رحت أمنح الألمان معلومات عن الجيش الفرنسي، وعندما اندلعت الحرب، فهمت أنني بعت فرنسا ولم أقبض غير الخيانة، وحاولت أن أستدرك ذلك في الحرب، وتمنيت لو قتلت في جبهة القتال، لأنال شرف الموت برصاصة الرحمة الأبدية، لكنني بقيت معلقا بين الموت والخيانة. ما أبشع الرجال حين يخونون ! حين اجتمع الحلفاء على هتلر ولم يعد للألمان من حل سوى الركوع والاستسلام، تمنيت لو كنت واحدا من أولئك الذين حوكموا في نورمبرغ ووضع رأسه في مشنقه أو تحت مقصلة أو صبوا عليه برميلا من البنزين. لكنني فوجئت أن انتصار فرنسا حمل إلى صدري عشرات الأوسمة والنياشين، يا لفرنسا الطيبة الوديعة ! تعلق المجد على صدر الخيانة.

في اليوم الثالث من شهر فبراير دعاني قائد القوات البرية وقال لي بالحرف الواحد "فرنسا تعتز بأمثالك، وتريد منك أنت الذي تنقلت بين فرنسا والسنغال والجزائر أن تقوم بتدريب الجندرمة في المارتينيك." وفهمت أن قلب فرنسا أوسع من هذا العالم.. ربما هم يعرفون خيانتي لكنهم لا يريدون أذى بي. وبقيت أشعر بالخيانة إلى اللحظة التي أرحل فيها عنكم أنتم الذين أحببت.

التحقت في خريف 1946 بسانت ماري بجزر المارتينيك، بينما التحق ابني جول بالجيش وأرسل إلى مدغشقر، فيما فضل جان بيار البقاء في أميان لإتمام دراسته الثانوية.

في الأسبوع الثالث من استقراري بسانت ماري، وشروعي في تدريب فصائل الجندرمة من أبناء

الجزيـــرة، جاءني ماكاني وهو خـــادم مارتينكي في بيتي المطل على البحر، فزعا، وأخبرني أن فيرونيك نقلت إلى المستشـــفى بعد إصابتهـــا بإغماء مفاجىء، وحيـــن وصلت، كانت فارقـــت الحياة، ولم تترك لي ســـوى وصية نقلهـــا إلي ماكاني هـــو أن يزرع في حديقة بيتها بأميان شجرة صفصاف ويتعهدها بالماء، ويطلق عليها اسم شجرة فيرونيك. وهو ما فعلت.

جدتـــك يا أنطوان هي قديســـة في ســـانت ماري، أزورها مرة كل عام، وأســـتعيد معها كل تاريخي. كانت امرأة عظيمة. أحببتها كما لم يحب العظماء نساءهم. كانت ملاكا خالصا.

قضيت أشـــهرا من الحـــزن. لكن من يجرؤ على رد فيرونيك. لا حل إلا الصبر.

في جـــزر المارتينيـــك، تعلمت شـــيئا واحدا، هو كيف تشعر أنك قادر على أن تكون عسكريا ملتزما وإنســـانا مبدعا، ورحت أكتب عن فرنســـا ورجالها، وتاريخها العابر للحـــدود بفضل ثورتها التي غيرت مجرى التاريخ. وكنت أرى في ســـكان الجزر بعضا من تاريخنا، فهم يتكلمون الفرنسية، ويتغنون بشعر بول إيلوار وفيكتور هيغو ويســـتمتعون بمسرحيات موليير.

كتبت مســـرحية "مكابدات إمبراطور في المنفى" ثم مســـرحية "العســـكري العاشـــق" التـــي أهديتها لجان باتيســـت رئيس بلدية ســـانت ماري الذي كان يحدثني عن تاريخ الجزيرة التي دخلها الفرنســـيون قبـــل أكثر من ثلاثة قـــرون، ويحدثني بمرارة عن الرق وبيع البشـــر مثل قصب الســـكر، ويقول لي لن

نذكـــر الكاردينال دو روشـــيليو بخير فهو من فتح باب اســـتعمار المارتينيك، أنتم تدخلون ديارنا باسم الدين وتقتلوننا باســـم المدنية، هكذا كان يقول لي جان باتيست الرجل النحيف. وكثيرا ما كان يذكر أمامي فيكتور شولشـــر الرجل الـــذي كرس حياته لتحرير العبيد في هذه الجزيرة، حيث خاض صراعا مع الإقطاعيين وقوانين المســـتعمرات الفرنسية إلى أن نجح في تمرير مرســـوم يقضـــي بإلغاء الرق في المارتينيك وغوادلوب وصار الرجل الأحب إلى قلوب الســـود في هذه المنطقة. لا أكتمك يا أنطوان أنني لســـت من طينة فيكتور لكن الإنسان في قلبي يرفض استعباد الآخرين.

تصور يا أنطوان أن جان باتيســـت لم يخطئ عندما ذكر أمامي الكاردينال دو روشيليو، لأنني استحضرت صورة الأب شارل دي فوكو الذي فتح أبواب صحراء الجزائـــر أمامنـــا. صحيـــح في الديـــن حكمة لمجد فرنسا.

أذكـــر يا أنطـــوان أنني فوجئـــت ذات مرة بظرف بريدي تحت الباب، وحين فتحته وجدت نصا يشـــبه الشعر لكاتب مارتنيكي لم يكن حينها ذا شهرة كبيرة اسمه إيمي سيزار Aimé Césaire كتبه في العام 1946 عنوانه نبوءة Prophétie يقول فيه:

"هنا حيث تحتفظ المغامرة بأعيننا
مفتحة وواضحة..
هنا حيث النساء تلتمع بالكلام..
هنا حيث الموت يبدو جميلا في اليد
كالعصفور في موسم الحليب..

هنا حيث الأنفاق تقطف بانحناءة البرقوق
الذي يبدو أروع من اليرقات..
هنا حيث الرشيقة العجيبة تبتدغ السهم والنار
من كل حطب..
هنا حيث نحل النجوم يلسع السماء
بخلاياه أكثر من الليل..
هنا حيث صوت كعب حذائي
يملأ المكان ويرتقي عاليا في زجه الزمن..
هنا حيث قوس قزح كلامي يعقد الغد بالأمل،
والطفل الأمير بالملكة.
لأنني رميت أسيادي، وعضضت عساكر السلطان..
ولأنني صرخت في الصحراء..
ولأنني أعليت صوتي في وجه حراسي..
ولأنني رجوت ذئاب وضباع القوافل..
أنظر إلى الدخان يجري كحصان وحشي
في المقدمة يطوي في لحظة حمم البركان..
بذيل الطاووس الهش.. ثم يمزق قميصه.
يفتح في لحظة صدره..
وأراها في الجزر البريطانية
في جزيرات من صخر مفتت،
تغرق شيئا فشيئا غي البحر الهادئ
حيث الهواء الذي تسبح
في نبوءات فمي وثورتي واسمي.."

إذا ما زرت يا أنطوان سانت ماري سيقول لك الناس إن الضابط أوليفيي مالو لم يكن عسكريا فحسب بل كان معلما ورجل مسرح وفيه بقية من كبرياء فرنسا. سيقولون لك إن أوليفيي كان يقول إن

محل المارتينيك في خريطة فرنسا كمحل القلب من الجسد. أعرف أن ثلاثة قرون وزيادة لم تجعل هؤلاء السكان يحبون فرنسا لكنهم لا يستطيعون العيش دونها. زرها وستعرف ذلك يا أنطوان، ولك أن تزور جزيرة غوادلوب الساحرة، وتفهم لماذا وصلت فرنسا إلى أقاصي العالم تاركة وراءها كثيرا من القتلى وأنهارا من الدم. المجد لا يأتي على بساط من حرير.

حين عدت من سانت ماري بجزر المارتينيك في العام 1951، قال لي قائد الأركان بوزارة الدفاع وهو يعلق على صدري وسام الخدمة المتميزة "لو أن لنا في جيشنا مائة من أمثالك لما رأيت راية ترفرف في السماء دون الأزرق والأبيض والأحمر". ولم تمض سوى ثلاثة أشهر حتى وصلتني برقية تفيد إحالتي على التقاعد. ولن أصور لك لحظة الموت التي عشتها ذلك المساء.

قتلتني فرنسا، طعنتني في صدري قبل أحد عشر يوما من عيد 14 يوليو. قتلتني، لأنها تحبني، ولأنني لم أفكر ساعة في أنني سأترك البزة العسكرية الأنيقة.

في تلك الليلة بقيت وحدي شاخصا أمام المرآة أنظر إلى الوجه الذي قضى قرابة أربعين عاما خادما لفرنسا، وكنت أسأل نفسي أهذا جحود أم أنها نهاية يشهدها كل الرجال؟ واستحضرت نابوليون حين كتبت على لسانه (أوصي ابني بألا يحارب ضد بلده أو يكون سببا في إذلال بلده.. أوصيه أن يأخذ بنصيحتي: كل شيء يهون من أجل الشعب الفرنسي).. وهو ما قلته لجان بيار الذي أخبرته في صباح اليوم الموالي

ليقول لي أبـــي أنت لم تحل على التقاعد ســـأكون استمرارا لك فأنا قررت الالتحاق بالجيش الفرنسي، إنما ليس في جزر الأنتيل، وسأســـعى لأن أكون في شمال إفريقيا، لن أكون بعيدا عنك.

قـــد لا تصدق يا أنطوان إن قلت لك إنني فرحت بعد إحالتي على التقاعد ثلاث مـــرات وحزنت ثلاث مرات أيضـــا، فرحت يوم ولدت أنـــت، ويوم بلغني خبر موت أبيك، ويوم تخرجت من معهد الموسيقى. وحزنت يوم ولدت أنت وكان أبـــوك بعيدا عنك، ويوم مات أبوك ولم يحضر جنازتـــه أي واحد منا، ويوم أحالوني على التقاعد، وكنت أشبه بمن يحمل على نعش إلى قبره.

هذا أنا يـــا أنطوان، رجل مـــن الماضي كما يقول أصحابـــي، لكنني أموت وفي نفســـي ما يجعلني أعتز بكل شـــيء قدمته لفرنسا وأتحســـر على شيء واحد أتيته، هو الخيانة.

لا تكـــن مثلي يـــا أنطوان، ولا أوصيك بشـــيء ذي قيمة ســـوى أن تبحث عن قبر أبيك، ولا أدعوك إلى أن تفعل شـــيئا أعظم مما فعل ســـوى أن تتعقب آثار الرجل العظيم، سليل المسيح، الأب شارل دي فوكو، لتعرف معنـــى أن تعيش وحيدا فـــي صحراء قاحلة، وبقدر إيمانك تنتصر فرنسا.

اقـــرأ معي وأنـــا أودع هذا العالم يـــا عزيزي قول القديـــس دي فوكو وهو في تلـــك الصحراء يموت برصاص واحد من التوارق "أبتي! إني أسلّم لكَ ذاتي، فافعل بي ما تشاء. ومهما فعلتَ بي، فأنا شاكر لك. إني مستعد لكلّ شيء، راضٍ بكلّ شيء. ليست لي رغبة أخرى، يا إلهي، سوى أن تكمل فيّ إرادتك وفي جميع

خلائقك. إني أستودع روحي بين يديك، وأهبُها لك، يا إلهي، بكلِّ ما في قلبي من حب. ولأني أحبك، ولأن الحب يتطلب مني أن أهب نفسي، أستودعُها بين يديك، من دون مقياس، وبثقة لا حدّ لها، لأنك أبتي".

سأموت يا أنطوان، ولن أوصيك بماري روز وجانيت وشجرة الصفصاف التي تتوسط الحديقة، إن روح فيرونيك ماثلة فيها.

محبكم

جدك أوليفيي

أفقت بعد تلك الرحلة الطويلة مع جدي، وإذا بجانيت تسند أمي وهي تمسك بيد جدي وتقبلها بحرارة وتقول "سامحني.. سامحني" ولا تتوقف.

كانت الساعة السادسة صباحا، حين سمعت طرقا على الباب، فأسرعت لأفتح.

وصل عمي جول وزوجته فيوليت. وظل يحضنني طويلا ويقول لي "جدك لم يمت، هو يعيش فينا ونحن امتداد له".

أفاق الناس في أميان على خبر موت جدي، فلبست المدينة أثواب الحداد، وظلت الكاتدرائية تدق نواقيسها طول اليوم، وتحول بيتنا إلى ما يشبه المقام الروحي الذي يقصده الناس، وكان رفاقه أكثر حزنا عليه جورج المقاوم وفرانسوا الأعرج، وكانت ماري روز تجلس إلى جانبي لا تفارقني أبدا. قالت لي وهي تشد على يدي:

- قرأت مسرحيته "العسكري العاشق" واستكشفت القلب الطيب لجدك..
- كان يحب الناس، ويحب أكثر الذين يحبون

فرنسا..

- لا أعـــرف إن كان في هـــذا البلد اليوم من يملك مشاعر كهذه.

- ربما نلقاهم في الحارات الفقيرة..

وفي الكنيسة، التف حولي أ ناس كثيرون يقدمون لي العزاء، وهي المرة الأولى التي شـــعرت فيها أنني صرت رجـــلا، يتعامل معه الآخرون بـــكل ما تحمله الرجولة من معنى.

قال الأســـقف وهو يتلو عظات الوداع الأخير "كان أوليفيي مالو ملح مدينتنا، لأن له قلبا ينبض بالحب والسعادة، وكان يأتي كل أحد إلى هنا ويردد مقولة الأب القديس شارل دي فوكو القائل: (أتذكر رابعة العدوية، الصوفية المسلمة، تقول في دعائها: ربّ، إن توســـلت إليك خوفًا من الجحيـــم فزجّني في نارها، وإن ابتهلتُ إليك طمعًا في الجنة فأغلق دوني بابها. ولكـــن إن دعوتُك حبًّـــا بك، فـــلا تحرمني بهاءك الأبدي. يا ألله، من دون ذكرك لا أســـتطيع أن أحيا في العالم، وكيف يمكـــن لي الصمود أمام الآتي من دون رؤيـــاك. يا ربُّ، تنهُدي ليس بشـــيء أمامك، إذ أنا غريبة في بلادك، وحيدة وســـط عبادك.) كم هو عميق إيمان هذه المرأة في تلك الصحراء، وكم هو عميق إيمان ذلك الرجل القديس في تلك الصحراء، وكم هو صادق إيمـــان هذا الرجل الذي ودعنا أمس ولم يترك وراءه سوى الحب.".

عرفت يومها أن جدي رغـــم الخيانة التي أتاها مع الألمان كان عظيما في محبته للناس، وكان عظيما في حبه لفرنسا رغم تاريخها الملطخ بدماء الملايين

شرقا وغربا.

ودعنـــا جدي في مقبرته الأبدية، وعدت مســـاء مع ماري روز لأجلس قريبا مـــن الصفصافة التي نقش على طرف منها حرفا O و V أي أوليفيي وفيرونيك وتاريخ وفاتها.. فنقشت إلى جانب ذلك تاريخ وفاة جدي.

كـــم هو ثقيـــل علينا رحيل شـــخص عزيز، إنه لا يختلف عن شـــجرة بتر جذع منها.. أو اســـتؤصلت جذورها.

ظلت أمي ملتحفة بكآبتها، في غرفة تزداد عتمتها يوما بعد يوم. بينما يزداد وجه جانيت شحوبا، فتغرق في صمتها يوما بعد آخـــر، وأنا أبحث عن الطريق الذي يجعلني سيد البيت بعد رحيل جدي.

رافقت ماري روز إلى بيت أخيها، وأســـرت لي في أثناء السير أنها ترغب في إنهاء إجراءات زواجنا بعد أن شـــعرت أنها لم تعد ترغب في البقاء ببيت أخيها، وأنها تسعى لبناء بيت وإنجاب أطفال.

- كلما رأيت امرأة حبلـــى أو تحمل طفلا تتحرك بداخلي نوازع الأمومة.

قالـــت لي مـــاري وهي تشـــد على يـــدي، وكأنها تستعجلني في أن أقول لها سنتزوج غدا وننجب ولدا بعد غد..

- سنتزوج في أول أيام ديسمبر من السنة القادمة؟

- السنة القادمة؟

- .. ونذهـــب إلى الجزائر لقضاء شـــهر عســـل. ما رأيك؟

- أقبل بالزواج في أول ديسمبر لكن هذه السنة..

- ليس قبل أن أبدأ العمل في كونسرفتوار أميان لمدة عام؟
- فهمت..
- أعرف أنك تفهمين قصدي..
- .. لكنني لم أفهم لماذا اخترت الجزائر لشهر العسل؟
- هذا أمراتركيه لليوم الثاني بعد الزفاف.
- الرأي لك.. لكنني لن أفرح كثيرا لاختيار الجزائر.
- عندما أخبرك ستفرحين..

لم أشأ أن تواصل ماري الحوار معي في أمر فصلت فيه بعد أن قرأت رسالة جدي.

قبلت ماري، ولم أزد على أن قلت لها وهي تضع رجلها على عتبة الباب:

- الحب يعيش بالصبر..
- والصبر إذا تجاوز عاما.. قد يقتل الحب.
- إلا هذه.. وتصبحين على وجه أنطوان مالو كل يوم.

ابتسمت ماري روز وهي تطرق باب أخيها.. وذبت في عتمة الشارع.

عدت إلى البيت.

أمي الكئيبة.

جانيت التي بدأت تتحول إلى ما يشبه الراهبة الحزينة، ورسائل أبي تملأ شيئا من الفراغ الذي تركه رحيل جدي.

رسالة أخيرة وصلت من أبي بتاريخ 13 يونيو 1959.

أبي العزيز والرحمة على روح أمي الطاهرة.

عندما سمح لي بقضاء عطلة أعياد الميلاد في آخر العام 1956 بينكم، شعرت حينها بأنني أولد من

جديد. رأيتكم محلقين حولي، وكأنكم تستكشفون وجهي للمرة الأولى. كان ما يشبه السمرة يطبع قسمات وجهي وتلك طبيعة الصحراء. رأيت كاترين الجميلة وهي تزداد بهاء، وحملت أنطوان في أحضاني، وأنا أشعر وكأن قلبي يطير من قفصه إلى أي مكان. كنت فرحا، وكانت جانيت الطيبة تأتيني بكل ما أشتهي من شراب وتقول لي ربما لا يوجد في الصحراء مثله، هي صادقة. وكنت أحيانا أسترق النظر إليك، لأعيد استكشاف الأب الذي أحب فرنسا كما لم يحبها أحد.."

توقفت عن قراءة الرسالة، واستحضرت صورة جدي الذي باح لي بسر خيانته لفرنسا.

أبي أنت لا تعرف أنك كنت أشرف من أبيك.

جدي كان خائنا، ولم يجرؤ على تجرع السم مثل العظماء الذين قرأنا تاريخهم.

انس في قبرك أبا خان وطنه.

أعذرني يا جدي، فأبي مات وفي يده بندقية، أما أنت فرحلت وفي فمك شيء من الماضي الذي لم تصنعه.

معذرة يا أبي إن قلت لك هذا الكلام وأغلقت الرسالة إلى الأبد.. لن أكمل ما فيها. لأنني سمعت من أمي أنك قضيت شهرا آخر للعسل، وكان لي منه نصيب الطفل الذي لم يذكر سوى قبلات أبيه قبل أن يعود إلى حيث الحرب والرحيل الأخير.

أعذرني يا أبي وأنت هناك في أرض لا أعرف إلى اليوم لماذا أخذوك إليها لتموت بعيدا عنا.

مت بعيدا يا أبي، ولم تقم لك جنازة العظماء كما يقول جدي. جدي أيضا لم تقم له الجنازة التي ظل

يحلـــم بها. طبعا لن تقام جنازات الفرح للخونة. ولن تعزف موسيقى موزار في كاتدرائية أميان العظيمة.

جاءتني جانيت بكوب من الليمون، ودون أن تكلمني جلســـت إلى جانبي، وراحت تقلب النظر في الصور، فتبتسم حينا ، وتتبدل ملامح وجهها أحيانا.

كنت أنظر إليها، ولسان حالي يقول "ليت جدي عرف هذه المرأة قبل أن يشـــرب عصير الخيانة من أيدي الألمان.. إنها وفية.. وفية جدا".

قلت لجانيت، وهي تدقق النظر في صورة أبي يتأبط ذراع أمي:

- في شتاء العام المقبل تكون لي صورة كهذه التي بين يديك..

- ليتهم يسمعون كلامك..

- الملائكة ستحمل أرواحهم إلى كاتدرائية أميان..

تبتسم جانيت، ثم تهمس في أذني:

- ماري جميلة وذكية.. وتحبك. أنت تستحقها.

وتخرج جانيت، دون أن تسمع جوابي. ولم يكن لدي جواب في تلك اللحظة سوى ابتسامة تفرح القلب.

كان صيف أميـــان ثقيلا بعد رحيل جدي. ولم أفكر في الذهاب أبعد من ضواحي المدينة.

أحيانا أصحب معي ماري روز، ومرة واحدة خرجت مـــع أمي وجانيـــت، وقضينا يوما كامـــلا في منتزه غيـــر بعيد. كنت أنظر أحيانا إلى أمي الميتة الحية، وأسأل نفسي عما تفكرفيه الآن، إنها مع أبي ولا ثالث بينهما. كانت تحبه. وأنظر إلى جانيت، الهادئة دائما، وأقول ما أعظم هذه المرأة التي منحت عمرها لعائلة قتلتها البزات العسكرية والحزن المتواصل.

3

في مطلع خريف 1972 التحقت بكونسرفتوار الموسيقى لمدينة أميان مدرسا للسيمفونيات، وكنت سعيدا لأن الطلبة كانوا ينظرون إلي ويقولون "إنه في عمرنا" وأضحك عندما أسمع هذا الكلام وأقول لهم "لا تنسوا أن موزار مات ولم يتجاوز الخامسة والثلاثين وترك من المقطوعات الموسيقية الخالدة ما لو اجتمعت أعمارنا جميعا ما حققت ربع ما ترك موزار"..

كان الطلبة يطلقون علي اسم أنطوان أميانسكي نسبة إلى مدينة أميان وتبركا بالموسيقار تشايكوفسكي الذي كنت أعزف كل شهر واحدة من سيمفونياته. وكنت أقدم الحفل دائما بالجملة التالية "لروحك يا جدي الذي علمتني أشياء ثلاثة هي كيف أحب الموسيقى وكيف أحب فرنسا وكيف يحبني الناس. ولروحك يا أبي أهدي ما لو سمعته مني لنمت سعيدا إلى الأبد، وإليك يا أمي أعزف مقطوعات لقلبك الطيب، ولكم يا عشاق البيانو الساحر ترقص أصابعي مدى الحياة. أما أنت يا حبيبتي ماري روز

فليس أمامك إلا أن تسمعينا أجمل ما كتب شعراء أميان العاشقة.".

وكان يهزني تصفيق الجمهوروهتافه الذي يأتي عشية آخر سبت من كل شهر.

في آخر سبت من شهر مارس 1973 وصلتني رسالة من شخص لم يذكر اسمه، واكتفى بعنوان بيته. قال فيها إنه كان رفيقا لأبي في المعركة التي قتل فيها بعين الزانة، ودعاني إلى زيارته في مدينة فيرميني القريبة من سانت إيتيان.

لم يسبق لي أن زرت هذه المدينة ولا حتى سانت إيتيان أو مدينة ليون على شهرتها.

سألت جانيت إن كان ذلك مهما، فردت علي" إن ذاكرة أبيك تفرض عليك الذهاب إلى الجحيم لو تطلب الأمر ذلك". بينما قالت لي ماري روز "ما عليك إلا أن ترد عليه برسالة وتسأله عن السبب الذي جعله يتصل بك، وما حاجته في ذلك".

وأمي ما رأيها في الموضوع؟

أخذت ورقة وكتبت "رجل من فيرميني دعاني إلى زيارة ليحدثني عن أبي وكيف مات في عين الزانة." ووضعتها في يدها، ولم تمض سوى دقيقتين حتى رأيت الدموع تنهمر من عينيها، وتنظر إلي، وكأنها تقول لي عليك بالذهاب.

وذهبت بعد أسبوع.

فيرميني مدينة صغيرة لكنها ساحرة جدا، يتوسطها شارع طويل، ومنه تتفرع شوارع صغيرة تحمل أسماء وقائع تاريخية وشخصيات عسكرية وفكرية من تاريخ فرنسا الطويل.

سألت عن شارع الورود والبيت رقم 17 فدلتني سيدة مسنة عن المكان لكنها قالت لي "إنه شارع لا يقيم به سوى العرب" ثم بصقت على الرصيف.

دلفت إلى الشارع ورحت أعد الأبواب إلى أن بلغت الباب رقم 17.

طرقت طرقا خفيفا، فلم يسمعني أحد، وكررت العملية مرات إلى أن أطلت امرأة في الخمسين من عمرها، عليها ملامح سمرة عربية تتخللها أوشام تغطي كل الوجه، وقالت لي بما يشبه الفرنسية غير المفهومة:

- عمن تسأل؟
- عن صاحب البيت.
- من أنت؟
- أنطوان مالو..
- من أين جئت؟
- من مدينة أميان..
- البشير غير موجود.
- وأين أجده؟
- يعود بعد ساعة.
- سأنتظر.
- توجد مقهى في الشارع الموالي يمكنك أن تنتظر هناك، وسأخبره..

مشيت، بينما كان صوت طفلة من داخل البيت ينادي فاطمة. كأن نساء العرب كلهن يحملن اسم فاطمة، لا أعرف معنى لهذا الاسم، لكن وقعه في الأذن جميل..فاطمة.

أخذت برأي المرأة وتوجهت إلى المقهى، وإذا

بأغلب رواده من عرب شمال إفريقيا، أغلبهم يتحدث العربية التي لم أفهم منها سوى كلمة "هات.. هات" وفهمت منها أنهم عندما يطلبون شيئا يقولون "هات". فجربت حظي مع القهوجي الذي يتنقل بين الطاولات ويرسل تعليقات ضاحكة لم أفهمها، لكنني كنت أشعر أنها طريفة لردود فعل الزبائن الذين يرسل أغلبهم قهقهات. قلت له:

هات.. كافي café؟

فرد علي النادل بازدراء واضح:

- bien légé ou bien sérré ?

فضحكت من سؤاله، لكنه زاد على ذلك:

- méfiez vous de deux choses، apprendre la langue arabe، ou essayer de comprendre une femme arabe.. c'est dur.. très dur.. restez là ou vous êtes..

- malgré tout.. –hat- café

وانفجر النادل ضاحكا، وراح يرد علي:

- alors mon cher ami.. tu va te casser les dents.. et en plus connaître un arabe c'est perdre son pain.. reste la ou tu es..

- je ne bouge pas.. mais –hat- café

وبقيت أتأمل وجوه الناس الذين بدا لي وكأن أغلبهم على مشارف التقاعد، إن لم يكن بعضهم تقاعد فعلا. وفي جدران المقهى كانت صور للاعبين ونجوم غناء عرب تملأ المكان. وآخرون يتبادلون الحديث، يظهر أنه حديث البلد البعيد.

جاءني النادل، وهمس في أذني "أغلب هؤلاء من الحركة الذين حاربوا مع فرنسا ضد استقلال بلدهم.". قلت له:

- تقصد أن هؤلاء كانوا يحاربون الفلاقة..
- تعرف الفلاقة إذن؟
- طبعا.
- أخـــي الأكبر كان منهم. فـــي الجزائر يقولون عنه شهيد.
- وأبوك؟
- من الحركة.. منحته فرنسا وسام الشرف، لا أعرف إن كانت تقصد شرفها أم شرفه. أبي يقولون عنه في الجزائر خائن.
- وأنت؟
- كما ترى.. بين أخ شهيد وأب خائن، يقف أمامك ميلـــود "الزميقري".. هوايتـــي نصيحة الناس بأن ينسوا الثورة.
- تقصد ثورة الجزائر..
- لا.. أقصـــد الثورة الفرنســـية.. فأنـــا ضائع بين ثورتين.

رحـــت أضحك، وأبتلـــع القهوة المـــرة، من فرط إعجابي بسرعة بداهة النادل.

نظرت إلى الســـاعة، كانت بطيئة، وربما ســـتكون أكثـــر بطئـــا إذا فكرت في الرجل الـــذي طلب مني لقاءه.

رجل لا أعرف شكله، ولا لون بشرته، من دون شك هو لا يختلف عن هؤلاء الذين يملأون المقهى.

قلت في نفسي ربما يعرفه نادل المقهى. سألته:

- ألا تعرف رجلا يقيم في شارع الورود رقم البيت 17؟
- هذا بيتنا..
- ماذا قلت؟ بيتكم.

- أبي اسمه البشير.. وهو متقاعد منذ سنتين، كان يعمل في شركة لصناعة الجلود.
- قلت إنه أبوك !
- وهل قلت إنني استأجرته كأب..
- وأين هو؟
- ربما يكون عاد إلى البيت. هو يخرج عادة في مثل هذا الوقت.. لا أعرف إلى أين، وأغلب الظن أن له امرأة أخرى يخفيها عنا..

وراح يضحك، إنه خفيف الروح، يحب الدعابة.

قلت له:

- من أي منطقة أنتم في الجزائر؟
- من ضواحي عنابة..
- يعني أنكم قريبون من سوق أهراس..
- مسافة ساعتين..
- وعين الزانة؟
- ما بها؟ أنا لا أعرفها، لكنني أسمع أبي يذكرها في حديثه باستمرار.
- أبي مات هناك.
- ما اسمه؟
- جان بيار مالو..
- أعتقد أن أبي يحتفظ بصورة معه..
- أين أبوك؟ ألا تعرف؟

ورحت أستعجل النادل في الجواب. وكعادته رد علي بأسلوبه الظريف:

- قلت لك ربما هو مع امرأة أخرى.. فكثيرا ما كنت أسمع المرحومة أمي تقول احذر العربي إذا زاد ماله.. لأن أول ما يقوم به هو جلب امرأة

أخرى.. وأبي له من حقوقه المالية في التقاعد ما يجعله قادرا على جلب امرأتين.

ويضحك، حتى تظهر أوداجه، ويأخذ فنجان القهوة الفارغ، وهو يقول لي:

- سأصطحبك إلى البيت.. لأن فاطمة، زوجة أبي بعد وفاة أمي قبل تسع سنوات، لا تحب الأغراب.
- فهمت هذا عندما طرقت الباب قبل نصف ساعة..
- يعني أنك تعرف الباب؟
- طبعا.
- كنت أعتقد أنك لا تعرفه.. إذن في هذه الحال، يمكنك أن تطرق الباب مرة أخرى فربما يكون عاد..
- وإذ لم يعد؟
- ابحث عنه في شوارع "فيرميني" لعلك تعثر عليه في حضن واحدة.. من شقراوات باريس.
- أنا جئت من أميان بطلب منه..
- إذن ما عليك إلا أن تنتظره لأنه لن يذهب أبعد من مدينة ليون..

كان يجلس في الطاولة المقابلة لي، رجل تقترب ملامحه الأوروبية من الممثل الفرنسي جان غابان، يدخن بشراهة، ويحتسي فنجان قهوة كأنه يتهيأ لفعل شيء ما.

عاد النادل، ولم ينتظر مني سؤالا:

- هذا اسمه مسعود السطايفي.. يأتي كل ستة أشهر إلى مدينة ليون، يقضي خمسة أيام فيها، ثم يأتي إلى فيرميني ليلتقي بعض أصدقائه القدامى، ثم يعود إلى الجزائر.

- أهو جزائري؟
- وسامته تخدع الفرنسيين..
- ولماذا يأتي كل ستة أشهر.
- قضى عدة سنوات في سجن ليون.. كان محكوما عليه بالإعدام.
- وما تهمته؟

قتل محافظ شرطة بمدينة ليون في العام 1958. ولم يعدم.

- هو أمامك.. كيف يعدم. ثم إن اتفاقيات إيفيان يا صديقي جعلت كل الناس أبرياء..
- ألا يخشى الانتقام؟
- قلت لك ستكون نظيفا وطاهرا إذا اغتسلت بماء إيفيان أو استفدت من أحكام اتفاقية إيفيان. إيفيان هي أرض الملائكة يا صديقي.
- وماذا يفعل هنا؟
- هو يأتي ليزور المكان الذي أطلق فيه الرصاص على ريمون كاري.. ثم يجلس طويلا قبالة السجن الذي كان نزيلا فيه. فيستعيد ذكريات فيها شيء من الألم والمرارة والفرح أيضا.
- فرح؟
- لأنه نفذ أمرا مقدسا. وقام بموقف شجاع.
- موقف؟
- هو نفذ أوامر جبهة التحرير، وحقق موقفا وطنيا.

تذكرت مصطفى الطالب الذي أشبع سالمون ضربا، وفهمت أن الأسئلة التي كنت أطرحها دائما تلقى إجابتها في كل لقاء يجمعني بجزائريين.

- هل تريد التحدث مع سي مسعود؟
قال لي النادل وهو يقطـــع حبل تفكيري. فلم أجبه، ففهم أنني لا أرغب في الكلام.
- كأس ماء.. أفضل من الحديث عن الدم والسجن.
- كأس ماء.. إيفيان؟
ابتســـمت. ولم أكد أكمل كلامي، حتى دخل رجل طويل، ذو شوارب، تغطي وجهه تجاعيد، ويضع قبعة سوداء على رأسه، وراح يتفرس الوجوه.
- "اذكر الصيد يهدف".. ها هو أبي..
- الرجل ذو القبعة السوداء.
- طبعا ومن غيره.
اقترب البشـــير وهو يبتســـم، ومد يده لمصافحتي، بينما انصرف ابنه فاسحا المجال لي مع أبيه:
- قهوة كالعادة.
قال ميلود، وهو يعدل قبعة أبيه بطريقة تكشـــف عن حميمية عالية بينهما. بينما قال لي البشير:
- وصلت الآن وأخبرتني زوجتي أنك في المقهى.
- وكيف عرفت أنني أنا المعني بالأمر.
- أنظر.. ليس في المقهى مـــن ذوي العيون الزرق سواك.
- وهذا الرجل؟
وأشرت إلى مســـعود الســـطايفي. لكن البشير أشاح بوجهه عنه بامتعاض.
- دعنا منه..
وأدركت أن البشـــير لا يحب جماعة جبهة التحرير، ويرفض حتى الحديث عنهم. قلت له محاولا استدراجه في موضوع ينسيه مسعود وجبهته:

- روحك مرحة.. أنت لا تختلف عن ابنك ..
- ميلود.. يحبه الجميع. ورغم أنه يملك مستوى تعليميا مهما إلا أنه يحب العمل في هذه المقهى.
- ليس عيبا..
- نصحته بالعمل في سلك الشرطة لكنه رفض، بحجة أنه يرفض أن يجد نفسه في مواجهة أمام بني جلدته من العرب أو الأفارقة.
- ربما كان على حق..

كان البشير ينظر إلي، ويبتسم، ثم يحرك رأسه بلطف يمينا ويسارا:

- تعرف أنك تشبه أباك..
- هكذا سمعت من جدي وجانيت.
- كأنك هو..
- كيف كان هو.. هذا ما يعنيني.
- لنتفق أولا، تقضي الليلة عندي، وتأكل من يدي فاطمة، وأحكي لك قصة جان بيار. هذا هو الاتفاق الذي أقترحه. هل تقبل؟
- أفضل أن أعود في قطار العاشرة ليلا لأن لي التزامات غدا..
- ليكن.. ولنبدأ الحكاية في البيت.

ما إن هممت بالخروج حتى لحق بي ميلود وهمس في أذني بصوت يمكن لأبيه أن يسمعه:

- قهوتك على حساب مسعود السطايفي..
- وما علاقتي به؟
- اختارك من بين كل مرتادي المقهى ليدفع ثمن قهوتك لأن شعرك أشقر..

فأكمل البشير معلقا على كلام ميلود:

- نحن أصحاب الشعر الأسود لا نعجبه.

ومضينا نحو بيت البشير. كان بيتا عاديا، أثاثه عتيق، وليس به ما يلفت انتباه الضيف، سوى قطعة قماش تتصدر جدار الصالون بها صور للكعبة، وزخرفة بالحروف العربية لا أفهم معناها، وصورة رجل بعمامته السوداء ولحيته، سألت البشير من هذا؟

- الامام علي..

- ومن يكون؟

- ابن عم الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

- تقصد نبي العرب. ولماذا تضع صورته هنا؟

- أعجبتني فقط.

- ولماذا لا تضع صور زعماء الثورة الفرنسية.

- لا أعرفهم.

- وشارل ديغول؟

- لا يحبه أبنائي.

- وماذا يحبون؟

- للأسف يحبون.. سوق أهراس.

وراح ينادي زوجته فاطمة، فجاءت تحمل صينية عليها إبريق وفناجين وحلويات، ويسحب من جيب سترته علبة معدنية بها مادة مسحوقة بلون أخضر يميل إلى السواد، كأنها تبغ، ويضع منها في فمه، ثم يبصق بصقا خفيفا جانبا.

- هذا هو الطفل الذي حدثتك عن أبيه.

نظرت إلي فاطمة بنصف عين، وردت على البشير وهي تضع الصينية الخشبية على مائدة عتيقة:

- لا يختلف عن الصورة.

- احضري الصورة حتى يتأكد أنطوان مما نقول.

خرجت فاطمة، بينما كنت أتساءل عن سر الوشم الذي انتشر على مساحة وجهها. كأنها امرأة قادمة من الأساطير.

- كيف تعرفت على فاطمة؟

سألت البشير بينما كان منغمسا في صب القهوة لي.

- لا.. لم أتعرف عليها قبل الزواج.. بعد وفاة زوجتي الأولى بسبب سرطان الثدي، أخبرني محمود وهو عامل في مصنع للأحذية بليون أن له أختا جاوزت الثلاثين لا مانع لديها من الزواج مع رجل يقارب الستين.

- هكذا ببساطة.

- أرسلوها لي في باخرة مارسيليا مع شقيقها الأصغر.

- ببساطة.

- وهل تريدني أن أقيم عرسا في فندق من خمس نجوم مثلما تفعلون أنتم؟ المرأة لا تختلف عن البضاعة يا ابن صديقي، تباع وتشترى في السوق..

- شيء مؤلم..

- بالنسبة إليكم..

- وإليكم أيضا..

- لا أعتقد..

وراح يسحب من جيب سترته الرمادية علبة سجائر "باستوس" زرقاء، وبهدوء أخرج سيجارة وراح يدخن، وكأنه يستعد للغوص طويلا في الذاكرة. ثم لا يلبث أن يدس أبهامه الأيمن في فمه ويرمي في زاوية البيت ذلك التبغ الأخضر معلقا:

- الشمة.. لا نتخلى عنها أبدا. تباع في "لا بلاص دي بون" بثلاثة فرنكات للعلبة. باعتها أصبحوا أثرياء.
كنت أنظر إليه صامتا. أرتشـــف فنجان القهوة على استحياء. ينفث دخان سيجارته في فضاء الغرفة دون أن ينظر إلي. ثم يشرع في الكلام:
- كان عمري ثمانية وعشـــرين عاما حين التحقت بالجيش الفرنسي، ولم أكن حينها واثقا مما يقوم به بعض الجزائريين..
تقصد ما حدث في نوفمبر 1954؟
- لا يهـــم.. لـــم أكن من الذين اعتقدوا أن فرنســـا ستخرج.
- وابنك؟
- سليمان لم يكن عمره يتجاوز السابعة عشرة حين التحق بهم ومات..
- تقصد استشهد..
- هم غرروا به ودفعوه إلى تنفيذ عملية ضد قابض بريد عنابة لكنهم أطلقوا عليه النار فمات..
- تقصد استشهد؟
- فزاد حنقي عليهم.
- من الفلاقة أم نحن؟
- حين دفنته أقســـمت ألا ألتحق بهم ولو فتحوا لي أبواب الجنة..
- وهل الجنة في أيدي الفرنسيين؟
- وأقســـمت ألا أعـــود إلى الجزائر ولـــو أعادوا لي سليمان.
- .....
- بالنســـبة لي الله في الســـماء وفرنسا في الأرض.

لا تونس ولا الجزائر. فرنسا هي الصح.. ولم يكن يعنيني ما يقال عن أولئك الذين يمارسون السياسة في "حزب الشعب الجزائري" أو غيره.. بعد ثلاث سنوات أخذوني إلى الأندوشين (الهند الصينية) لمحاربة المتمردين هناك.. وكنت من الذين شهدوا ديان بيان فو.. والحقيقة أن تلك البلاد ليست سهلة، وأهلها محاربون.. ثم إنني أسأل دائما لماذا ذهبت فرنسا إلى هناك؟.. وبعد العودة بقيت ستة أشهر في باستيا ومنها تم نقلي إلى عنابة ثم قسنطينة وسكيكدة قبل أن أستقر في عين الزانة.

- وأبي جان بيار؟

تنهد البشير واستلقى على ظهره، ثم استدار جانبا، ونظر إلي، وأشعل سيجارة أخرى وأتبعها بقليل من التبغ الأخضر، مع البصق جانبا.

تعرفت إلى جان بيار في شتاء 1959 حين التحق بنا في عين الزانة، وكنت حينها مكلفا مع عدد من العرب القدامى في الجيش بمراقبة تنقلات المتمردين على الحدود مع تونس، إذ إن أسلاك الكهرباء في خط موريس ابتلعت المئات ممن كانوا يحاولون التسلل إلى الداخل، كنا نسميه خط جهنم. والحقيقة أنني كنت أعرف تلك المنطقة بتفاصيلها، وكان الناس يطلقون علي اسم البشير الكانكي، لأنني أخرج ليلا مع الجنود الفرنسيين لتعقب آثار المتمردين وتفتيش البيوت والأماكن المشبوهة.

وكنت أعرف أنني منبوذ من الحدود إلى الحدود، إنما كنت أجد متعة فيما أقوم به، لأنني لم أقتنع

يوما بخروج فرنسا، كنت أحب القوة، ولم أر القوة إلا في وجود فرنسا، لهذا اخترتها ولم أهتم لما يقول الناس أو أوصف بالخيانة. هم من خانوا أنفسهم، ألم تر كيف تقاتلوا من أجل جيفة قبل وبعد 1962؟ ماذا فعل بعضهم ببعض؟ ألم يقتتلوا في السر بالأسلحة الكاتمة للصوت وأسلاك الكهرباء ويتباهوا في النهار بانتصار منحهم إياه الجنرال ديغول؟ ثم ماذا فعل بومدين بابن بله؟ هل جعل إقامته في قصر أم في قبر؟ هل..

- أعرف أن الأسئلة كثيرة.. لكن السؤال الذي جاء بي إلى فيرميني هو قبر أبي جان بيار؟

- دعني أفرغ ما في جعبتي من مرارة.. عشر سنوات وأنا أبحث عمن يسمعني. فاطمة أعجبتها شوارع فيرميني فصارت تقضي وقتها في المحلات التجارية، وميلود لا يحب حديث الماضي، وخديجة مع زوجها في مارسيليا، وسعدية مع أبنائها في شامبيري، وعثمان لا أعرف أين هو، ورواد المقهي كلهم مثلي يحترقون كأعواد الثقاب، لم يبق إلا الجدران. أكلمها فلا أدري إن كانت تسمعني أم لا. أنت يا أنطوان من أقاسمه المرارة والألم لأن جان بيار جزء من ذلك الماضي. أنت الآن من يسمعني ولا يقاطعني، لأن جان بيار كان يسمعني ونحن نتسامر في مقهى مركز عين الزانة، ويفكك كلماتي المتقاطعة ويضحك ثم يقول لي فهمتك يا بشير (..) أريدك أن تسمعني يا أنطوان.. بعد عشر سنوات صرت قادرا على إيصال أفكاري بلغة تعلمت شيئا منها. أريدك أن تسمعني.

كنت صامتا، أنظر إلى الرجل وهو يقترب من حالة انفعال مكبوت. تركته يتكلم.

- قتل عمي السعيد في ماجينو مع ثلاثة من أقاربه في الحرب العالمية الثانية.. كانت زوجة عمي تبكي بكاء عجيبا حين بلغها موته.. وأخذت تقطع ما تبقى من ثيابها وتندب خديها بأظافر حادة. وتنتظر جدي الذي يأتي غاضبا فيصفعها بيده القوية إلى أن تسقط أرضا وهو يقول حرام في الدين ندب الخد.. ثم يخرج بعد أن يبصق عليها.

كنت أسمع صوت غناء لم يسبق أن استمعت إليه، فيه شيء من الحزن، ينبعث من غرفة مجاورة، فأحس البشير بذلك:

- هذا صوت المطرب الذي يحبه أهل سوق أهراس الشيخ "بورقعة". هو من يقتل فينا سأم الغربة. ليتك تفهم ما يقول.. وليتك تسمع حدة بقار المرأة التي جدعوا أنفها لأنها أحبت الغناء.. ولم تتوقف إلى اليوم.

- سأسمعها يوما..

- الغناء يذهب الحيرة.

قاطعته، دون أن أحاول استفهامه في تصرفات جده العنيفة، لأنني استحضرت صورة جدي وسلوكه العنيف مع أمي.

- هل زرت قبر عمك وأقاربك؟

- لا.. لم أفكر في هذا.. ثم أين أعثر على عظامهم التي بليت أو داستها دبابات الحرب.

- معنى هذا أنني لن أعثر على قبر أبي؟

- أنا أعرف مكانه.. سأدلك عليه..

- جئت لأعرف عنه ما لم يقله في رسائله لجدي..
دخلت فاطمة تحمل كيسا رماديا، وأعطته للبشير الذي أخذه منها وألقى به في حضني:
- هذه بقايا أبيك.. بعض صوره وكلام كنت أراه يكتبه.. وورقة عرفت منها عنوان بيتكم في أميان.
فتحت الكيس، بينما كان يتملكني شعور ممزوج بالخوف والقلق والرغبة في معرفة ما يحويه الكيس.
كان البشير وفاطمة ينظران إلي، وأنا أنظر إلى الكيس.
ألقيت ما بداخله على الطاولة الخشبية، فتناثرت الصور والأوراق، ودفتر صغير كتب عليه "ما لم أقله لولدي أنطوان".
مد البشير يده إلى ورقة صفراء، ثم قال لي اقرأها، وكب ما تبقى من تبغ في فمه، وأنا أكاد أتقيأ.
كتب أبي:
"صديقي البشير..
لم أعرفك قبل الحرب.. لكنني أحببتك وقت الحرب لأنك صادق. ولم أجد إنسانا أأتمنه علي وعلى تاريخي سواك، لأنك مثل أبي أحببت فرنسا. أقول لك هذا لأنني أشعر أن كل يوم يمر إلا وأقترب من الموت، فهذه الحرب التي قالوا لنا إنها لن تطول تأكدنا أنها فعلا لن تطول إنما أعمارنا صارت أقصر ما يكون. إن مت يا بشير وكان لك العمر الطويل أدعوك لأن تأخذ هذا الكيس وتعطيه لابني أنطوان بعد أن يكون بلغ العشرين، فعمره الآن ثماني سنوات.

لا تنس يا بشـــير، إنها أمانـــة. وإذا متنا نحن الاثنان، فلتمت أســـرارنا معنا وليذكرنا الطيبون من الأهل والأقارب. لا تنس يا بشـــير عنوان البيت مدون ظهر الورقة. أنت إنسان وفي جدا.

جان بيار

عين الزانة 15 يونيو 1959"

- الآن فهمت لماذا اتصلت بي؟

قلت للبشـــير، وقد انبعثت من بين شـــفتيه ابتســـامة هادئة، بينما راح يشعل سيجارته الثالثة.

- عمرك الآن عشرون عاما..

- وهذه الصورة التي عليها آثار دم أو حناء؟

تغيرت ملامح البشير وانقبض وجهه، ثم قال بصوت خافت فيه كثير من الحزن:

- هذه الصورة هي آخر مـــا كان يحمله أبوك قبل موته.. وســـأحدثك عن اليـــوم الأخير في حياته وفـــي حياتي أيضا. احتفـــظ بالصورة فإن فيها دم أبيك.

- وهذه الصورة؟

قلت للبشـــير وأنا أنظر إلى صـــورة غريبة، فأخذها مني وأرسل قهقهة لم أفهم سببا لها، وقال لي بعد أن أرسل سحابة دخان في فضاء الغرفة:

- فـــي هذا اليوم خرجت مع جان بيار وخمســـة من الجنود الفرنسيين صباح الأحد لجلب البريد الوارد من فرنســـا، وفي المقهى المقابل للبريد في سوق أهراس رأى جان بيار امرأة بلحاف أبيض فأســـرع نحوها، وطلب منها أخذ صورة معها ليرســـلها لكم

في أميان لكنها صفعته اعتقادا منها أنه يعاكسها، فما كان من ميشال أحد الجنود الذين كانوا معنا في المهمة إلا أن أخذ الصورة على حين غرة، ويبدو هنا جاك وجان كلود وإيف رومان، وهم يضحكون. أما أنا فلم أظهر في الصورة لأنني خشيت أن يتعرض جان بيار لاعتداء من بعض العرب في المقهى، والحمد لله أن صفعة المرأة أنهت المشكلة بأسرع ما يكون.

- وماذا فعل أبي؟

- لا شيء.. كان طيبا.. وقال لي عند عودتنا إنه سيكتب كلاما عما حدث له.. ربما تجده في هذا الدفتر..

رحت أقلب صفحات الدفتر، وأقرأ عناوين النصوص "مطر دافئ" و"الليلة التي لا يأتيها القمر" و"العودة إلى شوارع أميان" و"فرحة الجندي ميشال" و"الصفعة".. فابتسمت وصرت أقرأ بصوت مرتفع أمام إعجاب البشير وفاطمة:

"في بياض ناصع
مرت امرأة من سوق أهراس..
أعجبني البياض..
لم أنظر إلى عيني المرأة
ولم ألتفت إلى من هم حولي..
أعجبتني كثيرا..
أسرعت نحوها ببزتي العسكرية
التي لا تعجب النساء..
اقتربت منها..
كانت أطول مني بشبر واحد..

قلت لها امنحيني صورة
فمنحتني صفعة
وواصلت طريقها نحو مملكة النساء.
فانهزمت..
لأن بزتي العسكرية لا تخبئ الرجولة
إنما الصمت عند الهزيمة.."
قالت فاطمة بعد أن أنهيت قراءة نص أبي الشعري:
- ماذا قال؟
فرد عليها البشير بأسلوب خشن إنما لطيف:
- قال لها أنت امرأة تنقصك الشوارب.
فانفجرنا ضاحكين. وطلب البشير من فاطنة إحضار علبة تبغ جديدة.
وواصلت تقليب أوراق الدفتر إلى أن بلغت الصفحة الأخيرة، حيث رأيت ما يشبه الوصية لي:
"ابني أنطوان..
إن وصلتك هذه الكلمات، فقل إنها وصية أب لابنه، أو إن شئت فقل إنها كلام يستحق التأمل، أو قل إنها ورقة لا يجوز رميها في سلة المهملات.
إن وصلتك الورقة، اعلم أنك معي لا تفارقني صورتك، أنا الذي رأيتك مرة واحدة، ولم أنس ابتسامتك التي تذكرني بكاترين حين التقيتها أول مرة على الجسر الحجري. أنت لم تغب عن عيوني لحظة واحدة، وأعرف أنك في غيابي تكبر مثل الوردة التي تتفتح يوما بعد يوم، ونشم عطرها فنزداد تعلقا بها. أنت الوردة التي أتمنى عطرها وأنا على جبهات الموت.
لا تنزعج من كلمة الموت، لأن أباك يعيش الموت

كل يوم، لهذا لا يزعجه شيء اسمه الموت.

أعـــرف أن أبي، جدك، لا يكلمك إلا عن فرنســـا، لا تنزعـــج منه، هو هكذا من طينة لا نفهمها نحن، ربما لأنه نشأ يتيما فوجد أن له أما تسمى فرنسا وأبا يسمى فرنسا وإخوة يحملون ألوان فرنسا. أحب جدك كما أحبـــك أنا، وأحب أمك كاتريـــن كما تحبني هي، واعطف على جانيت كما تعطف علينا جميعا.

إن عدت لن أمنحك سوى الحب الذي خبأته طويلا من أجلك، وإذا لم أعد فلا أريدك أن تنزعج كثيرا وتحـــزن، لأن من كانت مهنته التحـــاور مع الموت يمكنه أن يخسر الجولة فيرحل بعيدا.

أبوك يا أنطوان لم يكتب شيئا بعد وصوله إلى عين الزانة ســـوى قصائد أهداها إليك أنت وحدك، ومتى وصلتك، افعل بها ما تشـــاء، احفظهـــا أو مزقها، أو صب عليها زيتـــا حارقا. هي لك، وأنا لك. فكن لي أيها الابن الحبيب، وكن لأمك التي تراك في عينيها صورة جان بيار.

أبوك جان بيار

لا جدوى من التاريخ، لأن الآجال بيد غيرنا. المكان عين الزانة. وأما حافظ الرسالة فهو البشير الطيب جدا."

اغرورقت عيناي بالدمع. ورحت أقلب الصور التي يظهر فيها أبي فـــي مواقع مختلفة، أحيانا وحده، أو مع جنود آخرين. كان دائم البسمة.

- لا أريد أن أسمع منك أكثر مما سمعت.. حدثني عن أبي، كيف مات، وأين قبره؟

نظر البشير إلى فاطمة وكأنه يدعوها إلى الخروج، فقامـــت من مكانهـــا، وخرجـــت دون أن تنبس بكلمة

واحدة، ثم نظر إلي، واستأذنني أن يخرج لقضاء حاجة ثم يعود. وبقيت وحدي أفكر في بقية القصة.

عاد البشير، وأشعل سيجارة جديدة، وأكمل القصة دون تمهيد:

- كنت أعتقد أن مركز عين الزانة لا تصل إليه العفاريت، فقد كانت تحصيناته متينة، والمخابئ الأرضية أكثر أمانا.. لكن ما حدث في تلك الليلة لا يمكن تصوره. عشنا الجحيم. وأذكر أننا كنا منذ أسبوع نعد للاحتفال بيوم 14 يوليو، وكان جان بيار يستعد لقراءة كلام طلب منه قائد المركز كتابته، انظر في الكيس ربما تعثر على ما كتب.. انظر.

رحت أقلب الأوراق والصور وأدقق النظر في العناوين والتواريخ، ثم رحت أتصفح الدفتر ورقة ورقة، فلم أعثر على شيء، وأعدت الكرة مرة أخرى، فلفت انتباهي نص شعري دون عنوان، كتب بخط غير واضح جدا، مع محو لبعض الكلمات، جاء في النص:

لا أعتقد أنهم يسمعوننا في تلك البلاد البعيدة
نحن في هذه الجبال
ربما تأتي سحابة الذكرى
فتمطر علينا شيئا من الفرح
نحن الذين اخترنا الموت من أجل فرنسا
وهي اختارت أن تفرح في مثل هذا اليوم
نحن الذين نصنع المجد
ونعرف أن حياتنا قصيرة
لأن يد الموت (...)أطول من جبال البيريني

وأشرس من نهر السين حين يفيض
نحن الذين سرقت منا الحياة العطر
ومنحتنا الحق في أن نفرح يوما واحدا
هو اليوم..
ستذكرنا عين الزانة حين نقف
كأشجار الصنوبر
ننظر إلى العلم الذي تفوح منه نسائم جان دارك
ومقاومي النازية الأشراف..
سيذكرنا التاريخ رغم أنفه.

عين الزانة 11 يوليو 1959

كم أنت عظيم يا أبي عندما تواجه الموت. لم تكن تخشى الموت، إنها سمة الرجال الذين يموتون مرة واحدة.

قلت للبشير وهو غارق في صمته يسمعني، إنما بقلب يحترق في عين الزانة:

- كيف مات أبي.. إنك تحرق أعصابي بتفاصيل الحكاية؟

لم يهتم البشير بسؤالي وواصل سرد الحكاية:

لم يحدث أن رأيت جان بيار يبكي سوى مرتين، المرة الأولى ونحن في طريقنا إلى مركز "لاكروا" حيث كان صامتا لا يكلم أحدا، بينما كان خده مبتلا، اعتقدت في أول الأمر أن سبب بكائه هو حنينه إلى عائلته، لكنه نظر إلي وقال لي هل تعرف أن اليوم هو الرابع من يونيو؟ قلت له صحيح. فرد بصوت فيه بعض المرارة "في مثل هذا اليوم منذ سنة وقف الجنرال ديغول في شرفة عالية بالجزائر وقال للآلاف ممن جاؤوا لتحيته "فهمتكم je vous ai compris" وفهمنا

جميعا أنه جـــاء ليقول لنا لن ترحلوا من هنا.. لكنه عاد إلى باريس ليقول بعد ســـتة أشهر للفلاقة إنني أعرض عليكم سلم الشـــجعان، نعم ، نقف اليوم على شـــرفة خيبتنا ونقول لدغول إنك حين قلت فهمتكم لم نفهمك، كلامك بالنهاية كان عكس خناجرهم لم يكن موجها إلينا.. نحن لنا الموت وهو له المجد. وراح يبكي كطفل، وبكينا معه. كنا نحبه لأنه كان صادقا. وأما المـــرة الثانية التي رأيت فيها جان بيار يبكي حين أخبرته بموت أبي ولم أحضر جنازته.

- قل لي كيف مات؟

كنت أســـأله، ولكنه يواصل سرد الحكاية بتفاصيلها الدقيقة. أشعل سيجارة أخرى:

- مركز عين الزانة العسكري، هو الأكبر في الجهة الشـــرقية، ولا يجرؤ أي كان على الاقتراب منه، لأنـــه يقع في مكان مرتفع جـــدا، ويرى من بعيد، بفضـــل الميرادور، وهو منـــارة عالية تنبعث منها أضواء كاشـــفة، ومبنى الكومنـــدوس الذي يأوي معظم الجنود ولا يقل عددهم عن المائتين، وغير بعيـــد عنه يوجـــد مبنى القيادة، وهـــو قديم نوعا ما، أما المبنى الرابع فيقع داخل مزرعة المســـيو غراســـيس، ويسمى "لاســـاس" حيث يضم عددا من الضباط الفرنســـيين وبعض الجزائريين الذين تم توظيفهم لإدارة شـــؤون السكان. وأهمية المركز تكمن في أنه يحتوي على أســـلحة خفيفة وثقيلة، وكذا كميات كبيرة من الأدوية. وغير بعيد عن عين الزانة كانت هناك مراكز أخرى مثل غيران والســـاقية وبوحجار ولاكروا وبوسردوك وعين

الكرمـــة.. وكلها مجهزة بأســـلحة ثقيلة وأعداد كبيرة من الجنود فضلا عن أسلاك خط موريس القاتلة، فكان المتمردون يموتون بالعشرات يوميا في محاولة لاختراق الأسلاك أو تهريب الأسلحة، ودب في قيادتهم اليأس وصاروا يبحثون عن وسائل أخرى للخروج من المأزق. في الليلة التي ســـبقت الهجوم علـــى مركزنا، رأيت جان بيار وعددا من الجنود في خيمة غيـــر بعيدة عن الميرادور وهم يحتســـون الخمر ويلعبون الورق، بينما كان إيف لاكاشيني، وهو من كورسيكا يعزف على قيثارة ويغني وحده. جلســـت جانبا أتابع المجموعة التي تلعب الـــورق، وتعلو بين الحيـــن والآخر أصوات الجنود. وفي حدود الساعة التاسعة والربع، توقف جـــان بيار عن اللعب، حينما أبصرني وحدي، تقدم نحـــوي وضرب على كتفي بيـــده وقال لي، وهو يشـــدني من ذراعي بهدف الخروج معه إلى ساحة المركز:

- انظر إلى القمر.. إنـــه أجمل وابهى من قمر ليلة أمس؟
- .....
- هل تعرف لماذ؟
- لا..
- لأننا نقترب من 14 يوليو..
- قمر 14 إذن...
- ليت أبـــي كان معنا. إن هذا اليـــوم عنده بالعمر كله.
- وماذا يفعل الآن؟

- لا شـــيء.. إنه يعيش ماضيه ولا يعرف شـــيئا عن حاضره.

وحيـــن وصلنا الجنـــاح الذي يقيم فيـــه جان بيار، طلب مني الانتظار قليلا. بينما دخل مسرعا، وجاءني بالكيـــس الذي بين يديك. ودون أن أســـأله قال لي مبتسما:

- إنها أغلى من البترول الذي يخرج من الصحراء.. أريدك أن تحتفظ بها، وكأنها تركة لأبنائك.

- ماذا أفعل بها؟

- سأكتب كلمة لابني أنطوان.. وأحدثه عنك.

وشـــرع يكتب تحت ضوء الميـــرادور بينما لا يزال يسمع صوت لاكاشـــيني من بعيد. وما إن أنهى جان بيار كتابة الورقة، قال لي "تصبح على خير" ودخل مســـرعا، بينما بقيت في مكانـــي برهة من الزمن ثم اتجهـــت إلى حيث نقيم نحـــن العرب. لم أحاول فتح الكيس لأعرف ما بداخله. إنها أمانة.

قلت للبشـــير، وهو يحرك ســـيجارته بين شـــفتيه مستحضرا تفاصيل يحرص على أن يذكرها أمامي:

- ما زلت أسألك عن موت أبي؟

تنهد البشـــير ثم جلس القرفصاء، وارتشف فنجان قهوة باردة، وهم بفتح علبة التبغ الأخضر.

كان الجو حارا، وليس هناك ما يحول دون ســـماع أصوات قريبة أو بعيدة، وعادة يســـهر الجنود إلى ما بعـــد منتصف الليل، وما عزز هذه الحال من الســـهر والســـمر هو التحضير لإقامـــة احتفال 14 يوليو. لم أكـــن أعرف بالضبـــط إن كان جان بيـــار بقي في المرقد الخاص بالضباط مـــن أمثاله، أم أنه عاد إلى

الخيمة التي يلعبون بها الورق، وإن كنت أرجح بقاءه في المرقد. أما أنا فتمددت على السرير الحديدي، في حين كان عدد من الجزائريين المجندين في الوحدة التي أشرف عليها يغطون في نومهم، ولم يبق إلا ضوء خافت. خارج المرقد كانت دبابتان، وفي السطح نصب مدفعان من نوع بازوكا.

وفي أعلى الميرادور كان عدد من الجنود الفرنسيين الذين يتابعون اتجاه الأضواء الكاشفة لترصد أي حركة مشبوهة.

وفي حدود الساعة الحادية عشرة والنصف سمعت نباح كلاب خارج المركز، فلم أعر ذلك كبير اهتمام، غير أن النباح زاد، ولم تظهرأي إشارة من الميرادور عن وجود شيء مشبوه، خاصة وأن أخبارا بلغتنا أن هجوما سيقوم به المتمردون يستهدف المركز أو جناحا منه. وفي صباح اليوم الموالي، انتقلت دوريتان من المركز يقود إحداهما جان بيار لتفقد بعض الأماكن التي يتردد عليها المتمردون الذين يتسللون من الأراضي التونسية.

وفي الساعة الرابعة مساء اجتمعت قيادة المركز لضبط ترتيبات حفل 14 يوليو خاصة وأن إمكانية حضور بعض قياديي الجيش واردة تماما، وفي نهاية الاجتماع أخبرني جان بيار أنه سيلقي كلمة باسم كل الجنود إلى جانب الشعر الذي كتبه، وأسديت تعليمات لنا لنردد مرتين متتاليتين نشيد "لامارسييز". وكان جان بيار سعيدا جدا لأنه اختير.

أذكر أنه قال لي "سيكون شعري هدية أخرى لأبي".

وكما هي عادة قائد المركز، قام بمناورة بيضاء في حالة هجوم على الساعة السابعة مساء، تبين أن الجميع متأهب لأي طارئ.

وفي مطعم المركز رأيت عددا من الجنود ملتفين حولت جان بيار يطلبون منه إسماعهم الكلمة التي سيلقيها باسمهم في الحفل، فكان يكتفي بابتسامة ويقول "ثقوا بي.. ستعجبكم كثيرا"، وخرج كعادته معي وهو يوصيني بالكيس الذي سلمني إياه الليلة السابقة، وكنت أقول له "كأنك تستعجل الموت" فيرد علي بابتسامة عريضة "ست سنوات في هذه البلاد كافية لأن تجعل من الغربة موتا مؤجلا."

وراح يكلمني عن عمك جول وأيامه في مدغشقر ويسألني عن أيامي في الهند الصينية. ودعني جان بيار في مدخل المرقد قائلا "موعدنا لامارسييز".

جاءت فاطمة تحمل سلة فواكه، وكوبين من العسل، ورغيفا تقليديا وكيسا صغيرا لا أعرف ما بداخله.

توقف البشير عن الحديث، وأومأ إلى فاطمة برأسه أن تخرج، وكنت أحجم في كل مرة عن سؤاله لماذا لا يريدها أن تكون حاضرة معنا، لكنه يقرأ ذلك في قسمات وجهي:

- المرأة لا تحفظ السر..
- حتى ولو كانت زوجتك..
- ولو كانت أمك..

لم أعلق على كلام البشير، ومددت يدي إلى الرغيف الساخن، فقال لي:

- هذا عسل وصلني منذ أسبوع من عين الزانة.. فيه رائحة أبيك.

- هل يمكنني أن آخذ هذا الكوب إلى أمي..
- ويمكنك أن تأخذ الكيس أيضا ففيه قليل من تراب عين الزانة.. كنت أخرجه كلما اشتقت إلى تلك الأرض، وأشمه كما يفعل العطارون.
- إنك تدفعني إلى أن أذهب غدا إلى الجزائر..
- ليتك تذهب فأراك ثانية لتروي لي ما رأيت.. إنها عشر سنوات كاملة لم أر فيها تلك الأرض ولا أظنني أراها..

وراح يأكل الرغيف مع حبات العنب، ويتحسس بيده اليمنى الولاعة، ثم يشعل سيجارة أخرى، ويواصل حكيه:

- استلقيت على السرير، بينما كان عدد من جنودي الجزائريين يصلون العشاء جماعة، أنا لم أكن أصلي حينها، رميت جسدي الثقيل على السرير القريب من باب المرقد، واستسلمت للنوم، بينما كان رفاقي يتهامسون كعادتهم قبل النوم. وفي حدود الواحدة بعد منتصف الليل سمعت إطلاق رصاص في جهة الميرادور، ومعه أطلقت صفارات الإنذار، فأسرعنا خارج المرقد، حيث أخذنا أماكننا في جهة السور الغربي، فلم نلمح شيئا، إذ إن اتجاه النيران كان في جهة المنارة، حيث كان الرمي كثيفا، بينما بدأت الدبابات تتحرك ببطء في جهة الباب الخارجي لمواجهة الهجوم المحتمل، إن لم يكن مجرد عملية يشارك فيها أفراد قليلون من المتمردين. وكنت أسمع أصواتا من بعيد تقول "إلى المخابئ.. إلى المخابئ"..فطلبت من الجنود التزام أماكنهم وتسللت عبر السور مع السعدي

وهو جندي شـــارك معي في حرب الأندوشين، في اتجاه الميرادور، وهناك رأيت واحدا من المتمردين يمطر دبابة، مزودة بستة مدافع، بمئات الخراطيش الحارقة من مدفع رشـــاش إلـــى أن انفجرت بفعل الذخيـــرة التي كانت بداخلها، ولم تنجح ســـيارة مصفحة في إنقاذ من كان بداخلها، بل تم حرقها هي الأخرى بمن فيها، والشـــيء نفسه تعرضت له ســـيارة جيب فيها أربعة جنود من فرقة الحراسة الخاصة بالميرادور، وعجزت ســـيارات الجي. أم. ســـي العســـكرية عن الخروج من الحصار بســـبب الحرائق، وتراجعت قليلا، لأبتعد عن المكان، خاصة وأن أغلب الجنود الفرنسيين، وأعضاء الكومندوس أسرعوا نحو المخابئ هروبا من النيران التي زادت كثافتهـــا، وأدركت حينهـــا أن المركز يتعرض لهجـــوم كبير. وقبـــل أن أبتعد عـــن الميرادور أبصرت أحد المتمردين يوجه نيران رشاشـــه إلى جندي كان يحـــاول التصدي للهجـــوم من أعلى الميرادور، لكن قذيفة أسقطته من أعلى البرج. لا أحـــد يفهم ماذا يحدث. كان الجميع في حالة من الذهول، ولم تكن هناك أي مقاومة سوى استخدام بعض الذيـــن تأخروا في الوصول إلـــى المخابئ، مدافع الهوتشـــكيس، وخاصة أولئك الذين كانوا يحرسون مخازن السلاح والذخيرة، لكن المتمردين نجحوا في التخلص منهم واســـتولوا على كميات هائلة من الســـلاح. ولما نجحت فـــي العودة إلى مكانـــي، وجدت أن عددا من الجنـــود غادر المكان، خوفا من أن يكون مصيره الموت، ولم يبق ســـوى

أحد عشـــر جنديا، قال لي أحدهم "إنهم يختبئون فـــي أماكن مختلفة من المركز". تســـاءلت أول الأمـــر إن كانت هناك خيانة مـــن الداخل أوقعت المركز ومن فيه في جحيم متمردي "الأفلان" أم أن الإفراط في الثقة هو الســـبب؟. قال لي السعدي "ســـأتحرى الأمر من جديد فـــي جهة الميرادور." بينما تســـلقت سور المركز الذي يحيط به سياج شائك، وإذا بي أشاهد رغم العتمة أشباحا تتحرك بهدوء، ففهمت أننـــا محاصرون. عدت إلى مكاني، وطلبت ممن كانوا معي البقاء في أماكنهم وعدم القيام بأي حركة قد تعرضهم لنيران المتمردين، وعدم العودة إلى المرقد أو التحصن داخل أي مبنى، والاقتـــراب أكثر من المواقع التي تيســـر عملية الهـــروب خارج المركز. لم أشـــهد فـــي الفيتنام حالة كهذه، فالحصار مباغت، والشـــلل تام. كل القوة التي يتوافر عليها المركز عاجزة عن الرد. نحن خارج المخابئ، أما الفرنســـيون فقد تحصنوا جميعا داخل هذه المخابئ التي كان يقول لنا قائد المركـــز "إذا وصل الفلاقة هـــذه المخابئ فليس أمامنا إلا الاستســـلام". وعندما شـــاهدت عشرات الكومندوس يسرعون نحوها أدركت أن المركز سقط في أيدي المتمردين. كانت النيران تصل من كل الجهات. حتى مقر قيادة المركز الذي لا يبعد عني بأكثر من مائتي متر، يتعرض لضرب شديد، وانفجارات تهزه، قلـــت "ربما يكون قائد المركز قضـــى في الهجوم". وبقيت مـــع جنودي أزيد من أربعيـــن دقيقة دون حراك، في حالـــة تأهب. عاد

السعدي، ولم تكن ملامح وجهه توحي بشيء من الطمأنينة. قال لي "إن أردتنا جثثا فليس أمامنا إلا أن نواجه رشاشات الأفلان.. وإذا أردت لنا الحياة فاتركنا نواجه مصيرنا بأنفسنا". قلت له "ماذا يحدث هناك؟" رد علي بانفعال "الجحيم". نظرت إلى الجنود، رأيت الخوف يسري في عيونهم، لم يكن بيدي ما يجعلني قادرا على إقناعهم بالبقاء، فقلت لهم "فرنسا ليست دائما الأقوى.. افعلوا ما شئتم. أما أنا فلا تسألوني عمّا سأفعل. مثلكم سأفعل ما أشاء". وأسرعت نحو المخيم الذي كان يأوي الجنود الفرنسيين وبعض أعضاء فرقة الكومندوس، غير أنني تراجعت أمام صوت ليس بعيدا عني "قف.. قف" لم أتوقف طبعا فأطلق علي النار، وأصابني في كتفي الأيمن، انظر إلى آثار الرصاصة التي اخترقتني..

وراح البشير يفك أزرار قميصه المخطط، ويتحسس بأصابعه مكان الرصاصة، ويصر على أن ألمس بيدي مكان الإصابة التي مضى عليها 14 عاما. ولم أقل شيئا، بل كنت غارقا معه في سرد وقائع معركة عين الزانة. وأكمل الحكاية:

بعد إصابتي لم يعد يهمني أي شيء سوى العثور على مكان آمن. فانتبهت رغم الظلام إلى كومة من بقايا أسلحة ثقيلة غير مستعملة، ولم أكن حينها أشعر إن كنت مسلحا أم لا. علي أن أنقذ حياتي في تلك الساعة. ارتفع نداء بصوت مبحوح وبلغة فرنسية غير مرتبة من خلال مكبر صوت "اخرجو ولن نقتلكم.. اخرجوا."

وتكرر الصوت مرات، ثم سمعت ما يشبه قذائف "الأنيرقا" وهي تهز المخيم هزا، وزاد من هول الانفجار وجود كميات كبيرة من الذخيرة والبارود.

وحتى لا ينكشف أمري اندسست داخل كومة السلاح غير المستعمل كاتما أنفاسي، وأضغط بيدي اليسرى على نزف الدم الذي ينز من كتفي.

وأنظر بين الحين والآخر إلى جماعة المتمردين الذين كانوا يتقدمون بأعداد قليلة ثم يتوزعون يمينا وشمالا، بما يوحي إلى أنهم تدربوا على الأمر مدة طويلة.

كنت أسترق السمع أحيانا من بعضهم، حيث قال أحدهم، وأعتقد أنه السبتي بوخضرة "لو أعثر على البشير الكانكي.. أشرب دمه".

وهل بقي في البشير دم؟ هكذا كنت أشعر في تلك اللحظة. وفي خضم هذا الهجوم وصلت طائرتان من نوع البي 26 وشرعت في إطلاق قنابل مضيئة بمحاذاة المركز، وهو ما سهل من مهمة المتمردين، الذين تعرفوا جيدا إلى أماكن كانوا يستهدفون ضربها، وعلا صراخ بعضهم "ها هو مقر القائد.. اضرب بالبازوكا" وراحت القذائف تطلق على المركز كأنها مطر صيفي مباغت، بينما كانت أصوات الجنود الفرنسيين داخل المبنى تتعالى بين طلب النجدة والصراخ نتيجة الإصابة.

استمر الهجوم على مبنى القيادة أزيد من عشرين دقيقة، بكل أنواع الأسلحة الرشاشة.

وبعد أن أمر قائدهم بتوقيف القصف، أسرع عدد من المتمردين نحو المبنى لاستجلاء الأمر، بينما

كنت أتحسس وضعي داخل كومة السلاح خوفا من أن ينكشف أمري، وأواصل الضغط على مكان الإصابة لمنع النزف.

أما الطائرات فإنها عادت مرة أخرى وراحت تقصف أماكن داخل المركز الغارق تماما في فوضى الرصاص. ويأتي صوت المتمردين ممتلئا بالبهجة "نعم قتلوا جميعا.. الكابيتان ومن معه".

وتساءلت في ذات اللحظة "أين اختفى الكومندوس؟ وأين جان بيار ورفاقه؟ وجنودي أين هم الآن؟ إنه الجحيم. وزاد حجم الانفجارات، ومعه كانت أصوات المتمردين ترتفع "دمروا المخابئ.. دمروها.. لا تتركوا شيئا يتحرك على الأرض".. وتعالت أصوات المتمردين "الله أكبر.. اضرب يا ابراهيم.. اضرب.. احرقهم".

بينما كان آخرون يخرجون مسرعين ومعهم أسلحة أخذوها من أماكن مختلفة، رشاشات وقنابل، وسلاسل رصاص. تأكدت أن من في المركز يختبئ تحت المركز.

غريب ما يحدث، المتمردون وحدهم يتحركون داخل المركز دون أن يواجهوا بأسلحة تملأ زوايا المركز. كأنها ديان بيان فو.

ما جدوى السلاح والأسلاك الشائكة والدبابات وكل أنواع الرشاشات والمدافع؟ إنها لا تعني شيئا في هذه اللحظة.

وغير بعيد سمعت انفجارا قويا يهز مبنى الكومندوس، وهنا تأكدت أنه لم يعد أي مجال للمقاومة.

سقط المركز وانتهينا إلى موت محقق. مرت

حوالي ساعة كاملة وأنا مختبئ بين أكوام السلاح القديم، ونزفي يزيد.

أطل بين الحين والآخر على الساحة التي يسيطر عليها المتمردون، الذين يظهرون ويختفون، يسرعون في كل الاتجاهات، ينقلون الأسلحة وأشياء أخرى في أكياس خشنة. كان الوقت يمر كسيف قاتل، وكنت كطير مذبوح، لا يرى سوى الموت يتحرك حوله.

فرنسا التي كنت أراها قوية مهابة، صرت أنظر إليها وهي تختبئ تحت الأرض، فرارا من موت محتوم، تحمله مجموعة خارجة عن القانون، وتساءلت في لحظة عابرة، ألم أكن مخطئا حين اخترت جناح القوة.

حاولت الخروج من بين ركام السلاح، ثم تراجعت في هدوء عندما رأيت اثنين من المتمردين يقتربان من مكان وجودي، حيث نظر أحدهما إلى أكوام السلاح وقال "لو كنت أقدر على حمل كل هذا السلاح لما تركته يبيت الليلة هنا.." فرد عليه صاحبه "هيا..الجماعة وصلوا مكتب الصاص".. الصاص يعني المصالح الإدارية المختصة التي يديرها ضباط فرنسيون يتدخلون في شؤون الجزائريين بما في ذلك مسائل الزواج والطلاق، وكثيرا ما كان ضابط الصاص في عين الزانة يستشيرني في بعض الأمور التي لا يفهمها وكان الناس يقولون "يا ويح من سألوا عنه البشير الكانكي".

وما إن تأكدت أن الهجوم توقف، وأن المتمردين غادروا المكان، حتى خرجت من بين الأكوام ممسكا كتفي، ورحت أنظر في كل الجهات، النيران مشتعلة

في مناطق عديدة، والجثث ملقاة في كل مكان.

أسرعت نحو المخابئ، فوجدت النار تأكل كل شيء، ثم اتجهت نحو مقـــر القيادة، حيث أتت النيران على ما فيه، والتهمت مصفحتين من نوع "هالفتراك" كل واحـــدة منهما مزودة بثمانية مدافع رشاشـــة، وحين دلفت من نافذة خلفية إلى داخل المقر كانت سحب الدخان الســـوداء تلف المكان، وجثث الجنود متفحمة في رواق المقر، إذ لا يقل عددها عن الســـتين.. ربما يكون المتمـــردون الإرهابيون اســـتخدموا غازات أو مواد حارقة.

وأبصـــرت جنديا جريحا فـــي زاوية الطابق الأول الـــذي لم يبق منه ســـوى جدار علقـــت عليه خارطة قديمة للجزائر، مارتن الكاتب الخاص لقائد المركز، أسرعت نحوه، وساعدته في الخروج، كان مصابا في رأسه وفي ساقه اليسرى، وما إن رأى مشاهد الجحيم حتى أغمي عليه. ليس بمقدوري أن أفعل شيئا له.

أجلسته إلى السور.

ورحت أتحسس المخابئ، لا أثر لها، تماما.

لقـــد دمرها الإرهابيـــون علـــى رؤوس المختبئين بداخلها.

يبدو أنهم يعرفون جيدا هذه المخابئ.

إنني أشـــم رائحة الخيانة. لا بـــد أن الجنود الذين كانوا معـــي تواطأوا مع المتمردييـــن، وهم من باع المركز بمن فيه. كنت كالمجنون أبحث عن منفذ إلـــى المخابئ، ولم أنجح فـــي معرفة المكان. وفجأة ســـمعت خطوات خـــارج المبنى، نظرت بحـــذر، إنه الســـعدي، ناديته بصوت خافت، تراجع قليلا، وبعد أن

قلت له "أنا البشـــير" تقدم نحوي، رآني أنزف، حاول تضميد الجرح بجزء من العلم الفرنسي المرمي بين الحطام.

- لقد حطموا مكتب الصاص عن آخره، وأخذوا كل ما فيه من وثائق وذخيره، وأنزلوا العلم الفرنسي، ورفعوا علم الجزائر.

قال لي السعدي وهو يضغط على كتفي بشدة، وأنا أحاول أن أستجمع قواي، إذ بدأت أشعر بدوار.

- والجنود؟

- بعضهـــم قفز مـــن أعلى الســـور رغم الأســـلاك، وآخرون يبدو أنهم ســـلموا أنفسهم.. وأنا اختبأت بجانب حوض الماء إلى أن رحل جماعة الجبهة..

- يكذب من يقول إنني لا أخشى الموت..

صمت البشير قليلا، وأشعل سيجارة، ثم راح ينادي على فاطمة لتحضر إبريق قهوة آخر. وواصل سرده:

- حين بلغت مكان معركة المخابئ الأرضية لم أكن فـــي كامل وعيي، ورغم هـــذا كنت حريصا على معرفة الطريق الذي يقود إليها. ســـألت الســـعدي إن كان يعـــرف طريقا آخر، فقـــال لي أعتقد أن هناك فتحة كبيرة داخل خيمة الضباط تقود إلى المخابئ. وأسرعت نحو الخيمة التي لم يبق منها إلا الرماد، وأما الفتحة، فرغم الدمار الذي طالها، يمكن المرور منها عبر سلم حديدي إلى المخابئ. حاولـــت الولوج منه إلى القاع غير أنني ســـقطت، فأدركني السعدي، وكررت المحاولة مرة أخرى. نزلت، غير أن الغبار والدخـــان والرطوبة كانت تمـــلأ النفق، فلـــم أتوقف عن الســـعال، حتى أنني

فكرت في الخروج بسبب صعوبة التنفس. ولم أكد أخطو خطوتين أو ثلاثا داخل المبنى، حتى تعالت أصوات آليات حربية، دبابات وطائرات، وهي تدخل المركز. عرفت أنها قوات نجدة وإسعاف جاءت متأخرة بأكثر من ساعة، وتبين فيما بعد أن المراكز القريبة مثل لاكروا وبوحجار وبوسردوك وعين الكرمة والساقية وغيران.. تعرضت جميعها لهجومات شبيهة في توقيت واحد لشل حركتها ومنعها من نجدة مركز عين الزانة المحصن. تأكدت بعد الهجوم أن من خططوا لهذا ليسوا من البشر إنما من الشياطين، يعرفون ماذا يريدون. ويفعلون كل ما يريدون..

أحضرت فاطمة القهوة، وانسحبت، ودون أن يهتم بها البشير صب فنجان قهوة مرة، وارتشفه على دفعتين، وأكمل حكايته:

- ..كان المخبأ مسدودا بفعل انهيارات حدثت داخله. حاولت إيجاد منفذ لكن شعرت أن الأمر مستحيل، فعاودت الصعود خارجا، وإذا بالمكان محاصر بجنود فرنسيين، اعتقدوا في البداية أنني من الإرهابيين، لكن الضابط مارسيل تونير، قائد مركز لاكروا تعرف إلي، فتقدم سريعا قائلا "إنه من رجالنا.. خذوه وأسعفوه إنه ينزف.". ولم أكد أصل إلى الشاحنة المهيأة لإسعاف الجرحى حتى أغمي علي، ولم أفق إلا على صوت السعدي وهو يقول لي "أنت في مستشفى سوق أهراس.. الحمد لله ما زلت حيا". لكنني لم أهتم كثيرا لما كان يقول، وسألته "هل من أخبار عن جان بيار؟"

فأخرج من جيبه صورة ملطخة بالدم وقال لي:
- عندما شرعت الجرافة في إزالة الركام الذي يغطي المخبأ القريب من مبنى القيادة، رأينا عشرات الجثث متراكمة، وما إن شرع في سحبها ونقلها إلى الساحة حتى لمحت جثة جان بيار، وقد تشوهت بفعل شظايا القنابل التي تم تفجيرها داخل المحبأ. تقدمت منها ورحت أعدل رأس جان بيار وأمسح قطرات الدم التي تغطي جبينه، وانتبهت إلى أنه يمسك بقبضة يده اليسرى صورة له مع ابنه وزوجته، فأخذتها، ها هي، لأنني أعرف محبتك له ومحبته لك..

نظر إلي البشير وقال بأسف شديد:
- تمنيت لو أنني رأيته ولو ميتا.. لكن لا حيلة لي مع الموت.. وكان عزائي الوحيد عندما حضرت -وأنا المسلم أبا عن جد- القداس الذي أقيم في سوق أهراس على أرواح أزيد من مائتي جندي قتلوا في تلك الليلة التي حرمت جان بيار ورفاقه من ذكرى 14 يوليو..
- وأين دفن؟ قلت للبشير وأنا أنتظر الجواب عن السؤال الذي جاء بي من أميان إلى فيرميني.
- في مقبرة النصارى بسوق أهراس. ستجد اسمه محفورا على رخامية بيضاء، في رابع صف على يمين باب المقبرة.
- يمكنني الآن أن أرحل، فقد حان أوان القطار. شيء واحد أقوله لك أيها الرجل، لم يخطىء أبي عندما قال عنك إنك وفي..
- ربما يكون جان بيار صادقا أما فرنسا فأجزم أنها

كاذبـــة.. كاذبة. فهذه الجزائـــر تعتبرنا خونة، وهذه فرنسا تقبلنا على مضض. إننا لا نختلف عن الأيتام..

- سينصفكم التاريخ..
- تاريخ من؟ إن عنيت تاريخ الجزائر فنحن خارجه.. وإذا أردت تاريخ فرنســا فهــو مغلق في وجوهنا. نحن رقم مهمل في معادلة التاريخ..
- الحق على ديغول كما يقول جدي..
- ليت الأمـــر توقف عند الجنرال. المســألة صارت أسوأ مع الكولونيل.
- تقصد بومدين؟
- ومن غير موســطاش كما يتباهى بذلك جماعة مسعود السطايفي.

في هذه الأثناء، كان الباب يدق. فتحت فاطمة. دخل ميلــود حاملا في يده قليلا مــن الحلوى، وبحركة ســاخرة، قبل رأس أبيه، وصافحني، ووضع الحلوى على الطاولة:

- هذه حلوى مستوردة من عين الزانة. من يأكل منها حبة واحدة يزور الجزائر، ومن يأكل حبتين يزور سوق أهراس، ومن يأكل ثلاث حبات يزور عين الزانة ومن يأكلها كلها يقضي ليلة في المستشفى..

أشــعل البشــير ســيجارة أخيرة، وأخذ حبة حلوى. تذوقها، ثم بصق جانبا:

- حلوى قديمة ومتعفنة.. تريد أن تقتلنا.
- اشتريتها من سعدون..
- يبيعــك حلوى بنصــف فرنك.. وتدفــع مقابل سمومه ألف فرنك. ارم الحلوى بعيدا.

نظـــر إلي ميلـــود، محـــاولا الخروج عـــن النص، وسألني:

- كيف وجدت عمك البشير؟

- أفضل منك..

- لو قلت غيرها لما وجدتني في المقهى، إذا ما عدت مرة أخرى.

- هل يمكن أن ترافقني إلى القطار؟

- شيء طبيعي..

نادى البشـــير على فاطمة، فجاءت سريعا، وفي يدها كيس أحمر من قماش سميك. تناوله البشير وقال لي ضاحكا:

- في هذا الكيس فســـتان تقليدي تلبسه نساء الشرق الجزائري، هدية من فاطمة لأمك كاترين، أرجو أن يعجبها..

- ليتها تقول لكما شكرا. إنها منذ وفاة أبي في حالة اكتئاب مزمن.

- ستفرح. أنا أعرف هذا. أو هكذا أشعر.

لم أشـــعر إلا وأنا أقبل رأس البشير، مما جعل ميلود ينفجر ضاحكا:

- في ســـاعتين تعلمت طبائع العرب.. فماذا لو بقيت سنتين؟

ضحك الجميع، وخرجت أحمل الكيسين، وليس معي غير صورة البشير وهو يشعل سجائره ويروي قصة المركز وهجوم متمردي الأفلان عليه.

4

ودعت ميلود، وعدت في القطار إلى باريس، ومنها إلى أميان. وطول الرحلة، كنت أستعيد مشاهد الحكاية كلها. وتستوقفني في كل مرة صورة البشير وهو يحكي بأسلوبه البسيط تلك الوقائع التي لم يقلها أبي في قصائده. كان يحكي لنا كل ما هو جميل.

كانت أسئلة كثيرة تتواتر في ذهني، هؤلاء الحركى لماذا اختاروا جناح فرنسا، أينقصهم الإيمان بأرضهم وشعبهم وتاريخهم؟ هم يعرفون أن فرنسا قدمت من وراء البحر لاحتلالهم والثأر من الداي حسين الذي حاول إذلال القنصل الفرنسي؟ أيحب البشير فرنسا فعلا أم أنه صار مكرها بفعل المنفى على حبها؟ لو كنت مكانه ما فعلت.

إنما لأن أبي يحبه أقبل كل ما قال لي. هو بعض من ذاكرة أبي، لهذا لن أسأل نفسي لماذا اختار البشير وعائلته جحيم المنفى تاركين وراءهم جذورهم؟ كم هي باهظة فاتورة الخيانة؟ جدي فعلها مع الألمان.

لا فرق بين جدي والبشـــير. الفرق أن جدي فعلها في الســـر وأما البشـــير فإنه أعلنها جهـــارا وأطلقوا عليه بشـــير الكانكي. ومن يـــدري. فربما يوجد في هذا القطار أكثر من بشـــير وأكثر من كانكي. ثم شـــرعت في قراءة الأشـــعار التي دونها أبي في دفتر "ما لم أقله لولدي أنطوان". مع إحساسي بإمكانية أن يكون في القطار أيضا أناس كجدي.

وصلـــت أميان وقـــت الفجر. قليل مـــن الناس في شوارع المدينة. هو يوم عطلة.

فتحت بـــاب المنزل، واتجهت إلى غرفتي، فأدركتني جانيت عند الباب، واحتضنتي كعادتها.

- كأنك لص.. تأتي خلسة.
- كيف حال أمي؟
- بخير. وكيف كانت رحلتك.
- كل رحلتي هنا.

وأشـــرت إلى الكيســـين وأنا ألقي بهما على السرير. وأنزع ربطة العنق التي لم أعتد على وضعها.

- رحت فارغ اليدين فعدت بكيسين.. كأنك علي بابا.
- لو ســـمعت قصة عيـــن الزانة لأدركـــت أن الغار لم يكـــن به أربعون حراميا، بـــل أكثر من ذلك بكثير.
- هل يمكنك أن تحكي لي قصة أبيك.. فأنا أعرف البداية لأنني عشتها. عشت حب جان بيار لكاترين. أما النهاية فلا أعرف سوى أن في موت أبيك موتا آخر لأمك.

ورغم الإرهاق الشديد، فقد رويت القصة كما رواها لي البشير كاملة، ولم تقاطعني جانيت قط.

وحين أنهيت الحكاية انتبهت إلى أن أمي كانت تقف إلى جانب الباب تسمع قصة الرجل الذي قابلته على الجسر الحجري ومات بعيدا عنها، فحزنت عليه حزنا شديدا أفقدها معنى الحياة.
أسرعت نحوها واحتضنتها، ثم أخرجت الفستان من الكيس الأحمر ورحت ألبسه لها وأنا أقول لها دون أن أعي ما أقول:
- لقد أرسله لك جان بيار من فيرميني..
وغرقنا جميعا في بكاء وحزن كبيرين.
.....
.....
.....
في اليوم الموالي التقيت ماري روز، وكانت في شوق لمعرفة ما الذي دفع بي إلى الذهاب إلى فيرميني. فرويت لها القصة كاملة، وما إن أنهيت الحكي حتى ارتمت في أحضاني:
- الآن فهمت لماذا تريد شهر العسل في الجزائر؟
- .....
واكتفيت بابتسامة لا تحتاج إلى تأويل. ثم استدرت نحوها:
- ما رأيك في حانة بايرون؟ هناك نعيد النظر في قرار الزفاف..
- نقدم الموعد أم نؤخره؟
- نؤخره بيوم بعد أن نقدمه بسنة؟
فارتمت مرة أخرى في أحضاني، وتلك عادتها عندما تفرح.

أخبرت أمي وجانيت بتاريخ الزواج في كاتدرائية أميان. واشترطت علي ماري روز أن نجعل من يوم زفافنا عيدا يفرح فيه الناس، وأن أعزف بعض المقاطع من السيمفونيات في الكاتدرائية، بينما تقرأ هي من أشعار جان بيار.

وكان يوما مشهودا.

لبست ماري روز لباس زفاف أبيض، وقفازات فضية، ولم تجتهد في وضع مساحيق لتكون أجمل. لكنها كانت أجمل النساء دون مساحيق. هي تعرف أنها الأجمل فادخرت المساحيق إلى يوم تكثر فيه الجميلات.

قرأ القسيس ما اعتاد على قوله في مثل هذه المناسبات، ودعانا إلى أن نعبر عن حبنا واستعدادنا لرباط مقدس مدى العمر، فقبلنا بعضنا، وحين نظرت إلى أمي كانت تبكي فرحا، أما جانيت فإنها كانت أكثر الحاضرين حيوية واستعدادا. وقفت في قلب الكاتدرائية وقالت بصوت عال للجميع:

- صلواتكم لا تكفي هذه العائلة لأن تكون أكرم ما في أميان.. وأفراحكم لو اجتمعت ما ملأت قليلا مما أشعر به في هذه اللحظة.. ادعوا لأنطوان وماري روز أنتما شمعتا هذه المدينة.. أضيئا كل الشوارع والبيوت والحانات العتيقة.

صفق الناس. وهمس في أذني القسيس "أهي متزوجة؟" قلت له "إن أردتها لك فهي غير متزوجة، وإذا أردتها لغيرك فهي غير متزوجة أيضا.." فلم يتوقف القسيس عن الضحك، وغرقت معه القاعة بمن فيها في ضحك لا يعرفون سببا له. ولم يتوقف

الحاضرون عن الضحك إلا عندما أبصروا القسيس وهو يتجه نحو جانيت ويشرع في تقبيلها، وهي واجمة لا تتحرك، ثم تنهدت وقالت بصوت عال "بعد خمسين عاما اكتشفت قبلة الرجل.. وأي رجل؟ رجل دين يكبرني بعامين أو ثلاث"..

كانت أمي سعيدة، هكذا كنت أقرأ في عينيها الهاربتين من حزنها الدائم.

في بيت جدي صرنا أربعة. ماري روز الجميلة أضفت على البيت مسحة من الدفء والحيوية المفقودة منذ رحيل جدي.

قالت لي ماري:

- هل حجزت مكانين في باخرة مارسيليا الذاهبة إلى الجزائر؟
- يبدو أنك أنهيت كل شيء، وسيلة السفر، وتاريخ السفر، والمكان المقصود؟
- لن أتركك وحدك تقرر..
- إذن في هذه الحال.. كل شيء جاهز للسفر يوم الأربعاء في الطائرة المتجهة إلى قسنطينة، والمسافة نحو عنابة وسوق أهراس لا تتجاوز الأربع ساعات في السيارة، هكذا أخبرني بعض الجزائريين الذين وجدتهم في شركة الطيران.
- تعرف يا أنطوان أنني لم يسبق لي أن سافرت بالطائرة؟
- حتى أنا..

وأطلت جانيت برأسها، ودخلت على الخط:

- حتى أنا..

حاولت أن أجرها من لسانها:

- حتى أنت.. ماذا؟
- حتى أنا سأقضي شهر العسل في الفاتيكان..
ولم نتوقف عن الضحك، حيث كانت جانيت تقوم بحركات تمثيلية تتخيل نفسها مع قسيس كاتدرائية أميان في حضرة البابا يوحنا بولس السادس.
قلت لجانيت احضري لي باقة من أجمل ما في حديقة جدي من ورد لأعطر بها قبر أبي. ولم تتأخر.
كان يوم السفر باردا رغم موسم الحر. سألتني ماري روز إن كنت أشعر بشيء غير عادي قبل ركوب الطائرة، فأخبرتها بأنني أستحضر رحلة أبي الأولى إلى قصبة الجزائر، وصورة البشير وهو يروي لي الساعات الأخيرة لموت أبي داخل مخبأ عين الزانة.
في الطائرة، سألت المضيفة عن مدة الرحلة فقالت "ساعتان ونصف الساعة بسبب تقلبات الطقس".
كانت ماري تمسك بذراعي، وتطل من النافذة الصغيرة، وتقول لي بلغة الأطفال "انظر.. إننا فوق السحاب". وكان في الجهة المقابلة لنا يجلس رجل وسيم اعتقدت في أول الأمر أنه مسعود السطائفي، حيانا بلطف كبير:
- يبدو أنكما متزوجان حديثا؟
- لم تخطئ.
قلت له، وأنا أعيد ترتيب باقة الورد، وأنظر إلى رجله الخشبية الممدودة خارج المقعد.
- لا أعتقد أن قسنطينة تصلح لأن تكون مكانا لقضاء شهر العسل..
- لا.. سنذهب إلى عنابة وسوق أهراس.

- في هذه الحال.. يمكنكما قضاء شهرين وليس شهرا واحدا.. فالمنطقة جميلة جدا.
- وهل أنت من تلك الجهة؟
- لا.. أنا من منطقة الأوراس.. وعملت أيام الثورة في جهات عديدة منها عنابة وسكيكدة وغارديماو..
- وهل تعرف عين الزانة؟
- هذا سؤال لا يطرح على رجل مجاهد. طبعا أعرفها وأعرف كثيرا من الأبطال الذين دمروا فرقة الكومندوس التي كانت تزرع الرعب في منطقة الحدود..

وزعت علينا مضيفة الطائرة جريدة "المجاهد" ومجلة "ريفوليسيون أفريكان" ومن خلال تصفحي لهما فهمت أن هذا البلد صار مغلقا في وجوه أمثال جدي.. ولا يمكن لفرنسا أن تفكر في العودة إليه. وفهمت أيضا أن أمثال البشير سيموتون بعيدا عنه ولن يدخلوه ولو جاؤوا بالحلف الأطلسي.

انتبهت إلى ماري، كانت غارقة في النوم ربما لم تحتمل المطبات الهوائية التي تتسبب في اهتزاز الطائرة بين الحين والآخر.

عند نزولنا في مطار قسنطينة الصغير، كان الناس ينظرون إلينا كما لو أننا من أولئك الذين قرروا العودة إلى فرنسا بعد استفتاء الاستقلال. ولم يسألنا شرطي الحدود أكثر من سؤالين "هل هذه أول زيارة لكما؟ وكم يوما تبقون في الجزائر؟" وحين قلت له إننا جئنا لقضاء شهر العسل، ابتسم وهو يختم الجوازين، وأكمل ذلك بتعليق لا يمكنني أن أنساه أبدا "أرجو ألا يدوم شهر العسل أكثر من

مائة واثنين وثلاثين عاما..".

بصراحـــة، لم أجد مـــا أقوله، فقـــد أعجبني ذكاء الرجل المبطن بكثير من الخبث.

خرجنا من المطار، واستأجرنا سيارة إلى عنابة.

كان السائق، وهو في الثلاثينيات من العمر، يسترق بين الفينة والأخرى النظر إلى ماري روز. أنا واثق من أنها أعجبته، وكيف لا تعجبه وهي جميلة جدا.

كان يتحدث لغة يمكـــن تفكيك ألفاظها، ويحاول أن يتحدث في كل شيء، قال لي وهو يعدل من صوت الراديو:

- هذه الأيام لا تســـمع ســـوى كلمة عدم الانحياز.. الجزائر عاصمـــة عدم الانحياز، ويقولون إن تيتو وبورقيبة وكاسترو وأنديرا غاندي سيأتون.
- قرأت هذا في الجريدة.
- موسطاش يحب الزعامة..
- من موسطاش؟ تقصد بومدين؟
- طبعا ومن غيره.. أنتما فرنسيان؟
- نعم.
- الفرق بين رجالنا ورجالكم هو هذا.

وأشار إلى شنبه ذي الشعر الأسود الكث. وأضاف:

- زعماؤكم لا يملكون شـــنبات، لأنها رمز الرجولة والفحولة. وموســـطاش لن يـــزور بلادكم ولو فرشتم له بساطا أحمر ينطلق من الجزائر ويعبر البحر إلى باريس..
- لماذا لن يزور فرنسا. وقد انتهت الحرب؟
- الحرب ليســـت رصاصا ودما فحســـب.. إنها أشياء أخرى.

قالت ماري روز، وهي تتأمل من بعيد الجسر المعلق:
- معه حق.. وهل انتهت حربنا مع الألمان؟
- كسبتما الرهان وخسرت أنا.
هكذا أنهيت الحوار بين ماري والسائق.
ورغبة منه في التعرف إلينا، قال السائق وهو يجتاز حاجزا للدرك:
- اسمي مخلوف.. موسطاش أيضا.
- وأنا أنطوان وهذه زوجتي ماري روز، نشتغل في التعليم بمدينة أميان، نزور الجزائر للمرة الأولى.
- أنا لم أدخل المدرسة النظامية، لأن المحظوظ من وجد مكانا أيام الثورة في مدرسة حقيقية. إنما كنت أسرق معلومة من هنا وأخرى من هناك، فصار بحوزتي ما يكفي للتحاور مع الناس. ثم إن أبي من أولئك الذين تعرضوا للإشعاع النووي بـ"إن إيكر" في الصحراء قبل 12 سنة.. وكان حينها محكوما عليه بالإعدام في سجن بربروس بسبب نشاطه الفدائي أيام الثورة.
- أما زال حيا؟
- وقد تزوج منذ سنتين امرأة أخرى. وهو يقيم في وادي العثمانية وهي بلدة صغيرة لا تبعد كثيرا عن قسنطينة.
شهرتها واسعة لوجود مستشفى الأمراض العقلية بها. بل صار يضرب بها المثل، لكثرة الناس الذين تتشابك خيوطهم. وهو من الذين أيدوا انقلاب بومدين على بن بله، لا أعرف لماذا.. هو يعرف على أي حال.

- قلت إن أباك تعرض لإشعاع نووي..
- كثير من الناس ينادونه اليوم محمد التارقي نسبة إلـــى التوارق بأقصى الصحـــراء حيث عاش وقائع التفجيرات النووية في أبريل 1961 ..

قالت ماري للســـائق، وكأنها تتعمد عدم الخوض في موضوع التفجيرات النووية:

- البحر.. هل يبعد كثيرا عن قسنطينة.

فكان جواب مخلوف سريعا، مبطنا بخبث كبير:

- يبعد عن قسنطينة بساعة واحدة.. وعن "إن إيكر" بيوم كامل.

ســـألته، وكنت إلى جانبه أتأمل طريقة تدخينه، إذ كان يتمتع بوســـامة غامضة. يحرك السيجارة يمينا وشمالا، ولا تحسب أنه يبتلع شيئا من الدخان:

- هل كان والـــدك يتحدث عن الظروف التي جرى فيها التفجير؟
- قل لي هـــل كان لوالدك موضـــوع آخر يتحدث فيـــه غير تفجيرات "إن إيكـــر" وأحيانا رقان. لقد صار عصبيا لا يمكن إقناعه بشيء، وينفعل باستمرار. ويمكنني أن أروي لكم بعض ما سمعته منه في عديد المناسبات. فهو يملك شهادات اعتراف كثيرة من الدولة بصفته مجاهدا، وعادة يطلبونه في الإذاعة ليقدم شهادات حول التفجيرات النووية الفرنسية بجنوب الجزائر. هو يحب الحديث عنها بمناســـبة وغير مناسبة.
- قلت إنه كان محكوما عليه بالإعدام؟
- صحيـــح.. لأنه شـــارك في الهجـــوم على مركز للشرطة بمدينة قســـنطينة أودى بحياة ضابطين

وثلاثة أعوان للشـــرطة، وأصيب أبي في العملية، حيث قبض عليه وتعـــرض للتعذيب، رغم أن مدة احتجازه لم تدم طويلا، فحوكم في مدينة سطيف وكان منتظرا حكم الإعدام، إلا أن عدم تنفيذ الحكم ارتبط بتفجيرات رقـــان و"إن إيكر"، حيث فضلت الســـلطات الاستعمارية جعل من هم في وضع أبي، أي الذيـــن هم محل حكم بالموت، حيوانات تجارب في "إن إيكر" القريبة من تامنراست، ودراسة نتائج التفجير من خلالهم.

- وهل مات في التفجير بشر؟

- أعتقد أن هيروشيما لم يمت فيها بشر..

احمـــر وجهي من صراحة مخلـــوف الذي كان يقود بســـرعة متوســـطة تمكنني ومـــاري روز من تأمل المناظـــر الجميلة علـــى جانبي الطريـــق. ودون أن يعيرني اهتماما راح السائق يسرد قصة أبيه:

- مات خلق كثير.. لكن فرنسا اكتفت بغلق الأنفاق وتحويل السكان من تلك المنطقة إلى جهات أخرى لأن تسربات الإشعاع بلغت مستويات مخيفة. مرة قال أبي، ونحن نحتفي بزفاف أخي الأكبر حسين، وهي قصة ســـمعتها منه مرات عديـــدة فحفظتها بتفاصيلها، قال أبي "في ليلة 19 أبريل 1961 جاءنا حارس ســـجن بربروس وقال لنا نحن نزلاء جناح المحكوم عليهم بالإعدام إننا ســـنقوم بنزهة خارج الســـجن في يوم الغد، ولم نفهم كلامه، لأنه ربما لم يكن يملـــك المعلومة الكافية. والحقيقة أنني توقعت أن ينفذ فينا الإعدام بصورة جماعية، وهو أمر عادي بالنســـبة إلى السلطات الاستعمارية، هي

من يحاكم وهي من يقرر وهي من ينفذ، أما نحن فالضحايا دائما، لا نملك إلا رقابا للشنق وأجسادا لابتلاع الرصاص. سألني صالح وهو شاب قليل الكلام من تيزي وزو:

- هل سنموت غدا..

- حسب الأبجدية دورك يكون بعد أسبوع.

ورحت أضحك، حتى أفرغ شحنة الخوف بعيدا عنه وعني، لكنه انتبه إلى أن الحارس قال خارج السجن، وتنفيذ الإعدام يتم عادة في قاعة خاصة بذلك، يتم فيها إحضار المحكوم عليهم بالإعدام مثلما يحضر إمام الجامع والنائب العام ومدير السجن ومحامو المحكوم عليه، كما حدث مع الشهيد أحمد زبانا الذي لم تنجح المقصلة في جز عنقه ثلاث مرات كاملة، لكن الجلاد ضغط عليها في المرة الأخيرة ليقطع رأس زبانا بينما كان محاموه يقولون لا تفعلوا هذا إنها عناية الله .. إنها إرادة الله. ليت للجلاد أذنا فتسمع وقلبا فيخشع. قتلوه ولم يعدموه.

كانت المرة الأولى التي سمعت فيها صالح القبائلي يتحدث في أمر الموت، وتهمته أنه ضبط في منزل قابض الضرائب يهم بالاعتداء على إحدى بناته انتقاما منه لما يقوم به من إهانة لسكان الأربعاء ناث إيراثن. هو يقول باحتشام – أكون صريحا إذ قلت لكم إنني لم أر فرقا بين قابض الضرائب وقابض الأرواح، لكنني أعترف أن ابنته نيكول جميلة إلى الحد الذي يجعلني أقبل بإعدامي إن هم زوجوني بها ليلة واحدة.. اسمحوا لي إن قلت كما قال شاعرنا سي محند أومحند " الله موجود حيث توجد النساء".

وراح يغني:
عندما تتسلط البغاث
يُحكم على النسور بالنفي..
وهي المرة الأولى التي سمعت فيها اسم الشاعر سي محند أومحند، إذ كنت أسمع بمفدي زكريا لأنه كان معي في سركاجي، وكنت ألتقيه أحيانا في ساحة السجن.

لن أحدثكم طويلا عن حياة السجن، لأن واحدا من بين كل ثلاثة جزائريين دخل السجن، وعاش جحيم الزنازين الرطبة والعذاب البطيء. ربما أكتفي بواقعة عشتها وحدي ليلة الفاتح من نوفمبر 1959 إذ إنني عوقبت بسبب بصقي في وجه حارس السجن جوزي الذي طلب مني خلع ملابسي الداخلية أمام عدد من المساجين دون سبب، فرفضت طبعا. وعندما أصر على أن أفعل ذلك، محاولا إرغامي بالقوة ركلته حتى سقط أرضا ثم بصقت في وجهه، فكانت العقوبة. كنت في زنزانة منفردة تحت الأرض.

الظلمة أنيسي الوحيد، ولا أعرف إن كنت في الليل أم النهار. ولأنني وحدي، سأفعل كل شيء إذ ليس هناك من يحاسبني إذا أخطأت في اليوم أو الساعة. قرأت الفاتحة عدة مرات، ثم تلوت سورة "إذا جاء نصر الله والفتح" ووقفت وحدي في مواجهة باب الزنزانة ورحت أتلو نشيد "قسما" حتى نهايته، ثم قرأت الفاتحة مرة أخرى، وجلست، وإذا بحارس السجن فيرناند المعروف بخفة دمه يطل علي من وراء فتحت باب الزنزانة ويهمس بصوت خافت فيه كثير من السخرية:

- صوتــك جميل.. أيقظت به المســاجين الآخرين على الساعة التاسعة صباحا..
- التاسعة؟
قلت له مستغربا، وغير مصدق. فأدخل يده وقال لي:
- ساعتي لا تكذب.. هل أنا أكذب؟
- لا.. ولكنني ألعن هذه الزنزانة.
- لا تلعن الزنزانة.. ويمكنك أن تلعن المقصلة التي تتنظر دورك.
- ومتى يأتي دوري؟
- إذا كنت مستعجلا.. سأتوسط لك.
لم أجد ما أقوله، واســتلقيت على الســرير، بينما أطلق فيرناند قهقهة وهو يقول لي:
- يمكنك أن تعيد ترديد النشــيد مرات أخرى فلن يسمعك سوى فيرناند وهذه الجدران.
ومضى فيرناند يصفر في الرواق الطويل.
لا أعــرف كم يوما قضيت في تلك الزنزانة. ليس أقل من ثلاثة أشــهر. إذ يكفي أنني، بعد خروجي لم أســأل المساجين عن أي شيء سوى "اليوم، أهو السبت أم الأحد؟" فيردون "الثلاثاء" فأعرف أنني كنت خارج الزمن.
لم أر أفراد عائلتي، وحتى المحامي الذي يأتيني في كل مرة ليقول لي "قضيتك لم تتم جدولتها". وحين زارتني مســعودة زوجتي، سألتني عن سر غيابي كل هذه المدة، وحين أخبرتها، قالت لي إن مســؤولا في الســجن قال لها إن زوجك نقل إلى فرنسا ليحاكم محاكمة عادلة في باريس، فصدقته.
مســكينة زوجتي مســعودة، تعودت على أن كل ما تفعله فرنسا لا يقبل الخطأ. وحين قابلتها آخر مرة في

بربروس قالت لي "لماذا لم تبق في فرنسا؟" فلم أملك أمام مأساتي سوى أن أضحك، وأقول لها "عندما ترحل فرنسا سأرسلك في أول باخرة إلى مارسيليا".

كانت تصلنا أخبار الثورة متقطعة من خارج السجن، إنما كنا مشدودين أكثر إلى ما يفعله السياسيون، لأن حديث الاستقلال كان يتكرر باستمرار في الزنازين، ورغم أننا لم نكن نأتمن فرنسا على أرواحنا نحن المحكوم عليهم بالإعدام، إلا أننا كنا نتمسك بخيط رفيع من الأمل في عدم تنفيذ حكم الإعدام فينا.

في فجر يوم 19 أبريل سمعنا أصوات شاحنات في ساحة السجن، وبدأ يتعالى الصراخ داخل أروقة أجنحة المحكوم عليهم بالإعدام. لم نفهم ماذا يحدث.

سمعت مصطفى البليدي يقول "يبدو أنه هجوم الجبهة على السجن." فيرد عليه بوعلام الروج "فاقوا"..

وبوعلام الروج هذا بدين وأحدب، ولا يتوقف عن الكلام، وكثيرا ما كان يضرب على حدبته بيده ثلاث مرات ويقول "كل الحكمة في هذه الحدبة".

ولم تمض دقائق حتى فتحت الزنازين وأخرجونا بسرعة وكأن زلزالا ضرب المكان.

وفي جلبة الخروج من الرواق، كان صالح القبائلي يضحك مما يحدث، ويقول لي بإيقاع ثقيل "يبدو لي أن الإعدام صار بالجملة..".

يركله حارس السجن، فيبصق في وجهه، ويقع بينهما شجار. يتدخل حارس آخر، ويدفع صالح داخل الشاحنة وهو يصرخ في وجهه "نهايتكم ستكون في الصحراء".

فهمنا أننا سننقل إلى الصحراء. لا أحد يعرف ماذا يراد بنا. لكننا اقتنعنا أن نهايتنا ستكون بعيدا في تلك الأرض القاسية.

الصحراء. كلمة السر. موتوا بعيدا.

كانت الشاحنات تسير بسرعة كبيرة، مخترقة شارع الأبيار الكبيرة قبل أن تنعطف يسارا في اتجاه بن عكنون ومنه في طريق واسع، ليست به أي حركة.

كنا صامتين. كل واحد منا يغرق في أسئلة المجهول. الموت وحده يسكن هذه الأسئلة.

توقفت الشاحنات الثلاث، وجاء عدد من ضباط الجيش، بمصباح يدوي يتفقدون المساجين.

ثم تنطلق الشاحنات مرة أخرى، وتتجه يمينا، ثم تأخذ منعرجا واسعا، ويفتح باب حديدي يربط بين سورين يعلوهما سياج به أسلاك شائكة.

وغير بعيد تراءت أمامنا طائرتان عسكريتان جاهزتان للإقلاع، إذ إن أصوات المحركات كانت تطغى على الأصوات الأخرى.

قال لي الهاشمي الأعرج، وهو ينظر عبر فتحة في غطاء الشاحنة:

- آخر مرة ركبت فيها طائرة مثل هذه عند عودتنا من الفيتنام.

- أنا لم يسبق لي أن ركبت طائرة..

علق إبراهيم الكوردوني، وهو متهم بصناعة المتفجرات في القصبة السفلى:

- المسألة ليست في ركوب الطائرة أو عدم ركوبها.. كل المسألة في الطريقة التي نموت بها.

أنزلونا واحدا وراء الآخر، وجعلونا في أرتال متراصة، وكان عددنا يفوق المائتين، ثم حولوا كل رتل نحو طائرة.

لم يكن أمامنا وقت لنسأل الحراس إلى أين نذهب. وكل ما كنا نشعر به أن أمرا سريا يتم التحضير له، ولا يمكننا أن نعرفه. ومن أين لنا أن نعرف ونحن أسرى جدران صلدة، لا نرى ولا نسمع وإذا وجدنا من نكلمه فلا جدوى من الكلام، لأنه إن لم يكن سجينا مثلك فهو حارس زنزانة.

دخلت الطائرة مع بقية المساجين، ففوجئنا بوجود جزائريين آخرين في الجزء الأول من الكراسي. وعرفت فيما بعد أنه جيء بهم من المدية والبويرة وسطيف ووهران وسجن لامبيز، وأغلبهم من المحكوم عليهم بالإعدام أو المؤبد.

كل من في الطائرة هم من المساجين المصنفين في خانة الخطر الدائم.

بعد ساعة من الطيران في المجهول، خرج من مقصورة قائد الطائرة ضابط برتبة رائد، مشى بين الصفوف دون أن يكلم أحدا، وكان يرسل بين الحين والآخر ابتسامة تخفي شيئا مبيتا.

توقف بعد حوالي سبع دقائق من المشي بين الصفوف، وخاطبنا:

- أنتم لا تعرفون وجهة هذه الرحلة. نحو الصحراء. الصحراء التي يسكنها التوارق ونستخرج منها البترول ونجني منها التمور. أنتم تتجهون نحو جبال "إن إيكر". إذا لم تكونوا زرتم هذه المنطقة قبل اليوم، فهي فرصة لكم، وأنتم الذين تنتمون

إلى فصيلة المجرمين والخارجين عن القانون. "إن إيكـــر" جزء من جنة جهنـــم. أنتم لا تعرفون جنة بمذاق الجحيم. ستذوقون ما لم يذقه غيركم. لن يقتلكم رصاص ولا مقصلة ولا مشانق. ستموتون ميتة غريبة.

قفز صالح القبائلي من مكانه، وأسرع نحو الضابط الفرنســـي الذي تراجع إلى الوراء، وبصق في وجهه وراح يتفوه بكلمات لم نفهمها، بعضها عربي:

- يـــا رخيص.. يا كلـــب.. والله ما راكـــم باقيين هنا..

حاول بعض المســـاجين منعه، لكنه دفعهم وهو في أقصـــى حالات الغضـــب. أما الضابط فلم يقل شـــيئا، وبقـــي واقفا في مكانه، وحتى بعض ضباط الصف لم يقوموا بأي شيء.

بصق صالح مرة أخرى في اتجاه الضابط الفرنســـي ثم عاد إلى مكانه:

- أرمني من الطيارة.. إذا كنت قادرا.. يا رخيص.

عم الصمت، إلا صوت الطائرة واهتزازاتها الخفيفة في بعض المطبات الهوائية.

اســـتجمع الضابط قواه، وعدل من وقفته، وكأنه لم يعر ما قام به صالح القبائلي شيئا وأكمل كلامه:

- ســـتموتون ميتة الكلاب.. وســـتأكل الغربان جثثكم العفنة. ســـتموتون داخل الأنفاق الرطبة كالجرذان. ولن يعرف أهلكم عنكم شيئا. لن تظفروا بموت الأبطال تحت المقاصل والرمي بالرصاص عند الفجر.

ولم نشـــعر إلا ونحن نردد نشيد "إخواني لا تنسوا الشهداء".

في صوت واحد، بدأ إيقاعه خفيفا ثم تصاعد بصورة جعلت الضابط يعود سريعا إلى المقصورة.

ولـــم نتوقف عن الإنشـــاد حتى الإعـــلان عن قرب الهبوط.

في هذه الأثناء وقف ســـي محمود النية، وهو إمام بأحد مســـاجد قســـنطينة، اتهم بالتحريض على قتل المعمرين، وقرأ الفاتحة جهارا، ثم دعانا إلى أن نقرأ بصوت عال "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا".

لا يمكنك أن ترى شـــيئا خارج المكان الذي حطت بـــه الطائرتان. كل شـــيء مغلق. ســـألني مصطفى البليدي:

- هل زرت الصحراء قبل اليوم؟
- لا.. لم يسبق لي.
- ولا أنا..
- إذن لماذا تسأل؟
- لأن الفـــراغ يولد الخوف.. والخوف يولد أســـئلة تافهة.
- قلت إنك كنت في الفيتنام؟
- بقيت ثلاثين شهرا.
- ألا توجد بالفيتنام صحارى؟
- لم أر سوى الـــ..

وفـــي هذه اللحظة قطع حديثنا صوت الباب الجانبي، ونزل ضابطان فرنســـيان، ثم لحق بهما الرائد الذي كان يتوعدنـــا بالموت، بينما بقينا نحن جالســـين. صعد أربعة أو خمســـة عســـكريين، وراحوا ينظرون إلينا ويتهامسون، ثم تقدم واحد منهم وسط الطائرة وقال لنا:

- أنتم في قاعدة عسكرية.. بمعنى أنكم بعيدون عن الشـــمال بأكثر من ألفي كيلومتر.. في مكان لا يســـمع فيه صوت العصافير. لن تفعلوا شيئا هنا. ستأكلون وتنامون. وتنامون وتأكلون. ومن أراد منكـــم أن يحلم فله ذلك. لكننـــي أؤكد لكم أن أحلامكم ستضيع في هذه الصحراء. لن تقوموا بأي شـــيء هنا. أنتم المحكوم عليكم بالمؤبد والأشغال الشـــاقة والموت. ســـتنزلون معززيـــن مكرمين. لا أعـــرف كم يوما يدوم هـــذا التكريم. لكنه لن يتجاوز شهرا ولن يقل عن نصفه. أؤكد لكم أنكم لن تفعلوا شيئا، إنما لن ننزع قيودكم، ليس خوفا من أن تهربوا في هذه الصحراء، ولكننا حريصون علـــى أن تكونـــوا في أمان بيننا نحن العســـكريين الذين يعيشـــون على تماس مع الموت والنســـيان. غير بعيد عن هذا المكان جاء رجل اسمه شارل دي فوكو وبنى معبـــدا وصار صديقا للتوارق أعواما طويلة لكن واحدا منهـــم غدر به ذات ليلة وقتله. نحـــن لن نقتلكم لأنكم ضيوفنا في هذه الصحراء. ستنزلون الآن من الطائرة، وستنقلكم شاحنات إلى مســـتودعات لا تختلف عن فنادق الشمال. وهناك ترتاحون من عناء الرحلة..

أنهى العســـكري كلامه، بينمـــا كان صالح القبائلي يتمتم بصـــوت خافت لـــم أفهم منه ســـوى كلمتي "كلب.. رخيص".

عند نزولنا من الطائرة كان الجود باردا.

تـــم اقتيادنا إلى شـــاحنات متراصفـــة على هامش المدرج.

وبعد حوالي نصف ساعة اتجهت بنا الشاحنات إلى وجهة غير معلومة، لا نعرف إن كانت شرقا أم غربا.

كان معنا عسكريان فرنسيان لا يتجاوز سن الواحد منهما ثلاثين عاما. تبدو عليهما آثار التعب والإرهاق والملل.

صمت مطبق. ولا رغبة لأي منا في الكلام، سوى صالح القبائلي الذي راح يردد بعض أغاني الشيخ الحسناوي دون أن يهتم بمن حوله. فيما كان العسكريان ينظران إليه بعيون فيها قليل من السعادة.

وفجأة توقف صالح عن الغناء، ووجه كلامه للعسكريين:

- Eh.. soldats.. notre hotel est-il encore loin?
- Loin ou près.. ça ne sert a rien.. vous êtes les nouveaux locataires de l'enfer..
- Je crois que l'enfer n'est qu'un passage obligé pour arriver au paradis.. n'est ce pas petit soldat.

لم يهضم العسكري كلام صالح القبائلي، فهم بضربه بمؤخرة سلاحه، ثم تماسك. ولكن صالح كعادته راح يتفوه بكلام لا نفهمه، ويكرر في كل مرة "كلب.. رخيص".

لاح من بعيد مركز عسكري، وعن مسافة أبعد قليلا بعض الخيم والمساكن الطوبية.

- مرحبا بكم في "إن إيكر"..

قال أحد العسكريين، وهو يتابع إشارت بعض العسكريين الموزعين في مدخل المركز.

اتجهت الشاحنات نحو مستودعات، تستخدم للعتاد والمؤونة.

أبصـــرت عددا من الأشـــخاص الملثمين، يشـــبهون التـــوارق، يجـــرون عربة عليها صهاريـــج ماء خارج القاعدة العسكرية.

تقدم عسكري بدرجة رقيب يحمل ورقة دونت عليها أسماؤنا، وراح ينادي علينا بلكنة يصعب معها معرفة الاســـم الصحيح، ثم جرى توزيعنـــا في أربعة أفواج، في كل مستودع فوجان من ثمانية وأربعين سجينا. ومنح كل واحد بطانية شتوية ذات لون رمادي داكن وإنائين مـــن الألمنيوم. ثم وقف الرقيب على طاولة معدنية وقال:

- أنا اســـمي الســـيرجان جوليان، يطلقون على اسم العقرب. النظام واضح هنا: لا تتكلم إلا بإذن، ولا تتحـــرك إلا بإذن، ولا تمرض إلا بإذن.ولا تمت إلا بـــإذن، إذا عوقبت لا تناقـــش. وإذا حاولت الفرار أكلتـــك النار. لا يهم إن فهمتـــم أم لم تفهموا. يمكنكم الدخول إلى الإسطبل.

لـــم يهضم صالح القبائلي كلام الرقيب، فرد عليه، بعد أن خرج من الصف ليكشف عن نفسه:

- هذا قانون أمك.. يا رخيص.

ولـــم يكد يكمـــل كلامه حتى فاجأه عســـكري في الخلف بضربة عنيفة، ســـقط علـــى إثرها.. لكنه لم يصمت، واستدار نحو العسكري الذي ضربه، ونطحه برأسه في وجهه، فسقط، وكاد ينهال عليه ركلا لولا تدخلنا.. فأســـرع الرقيب في إدخالنا إلى المستودع. أما صالح فلم نره منذ ذلك اليوم. ســـمعنا أنه عذب حتى الموت. بينما أخبرنا أحد عملاء الجيش الفرنسي أنه نقل إلى عين صالح بعد أن بترت رجله.

المستودع أعد حديثا لنقيم فيه، ليس فيه أي شيء، لا أسرة ولا دورات مياه. كل واحد يختار زاوية لينام، البطانية تستخدم فراشا لمن يرغب وغطاء لمن لا يحتمل برد الصحراء.

بقينا داخل المستودع أسبوعا كاملا لا نغادره إلا الساعة السادسة صباحا لقضاء الحاجات، والسادسة مساء لمدة نصف ساعة نلتقي فيها جميعا، وعادة تكون فرصة لنا لنصلي المغرب جميعا، حتى الذين لا يصلون، وهذا كان أحيانا يثير حفيظة قائد القاعدة الذي يخرج من مكتبه لينظر إلينا ونحن مصطفون وراء سي محمود النية، فيبصق في اتجاهنا مرات عديدة ثم يعود إلى مكتبه.

لم نقابل بشرا آخرين سوى العساكر الفرنسيين. مرة واحدة سمح لأحد سكان المنطقة ليقابلنا ويعطينا قليلا من القطران المحلي، بإذن من قائد القاعدة، ولم نسأل لماذا، غير أننا عرفنا منه أن أزيد من ألفي جندي فرنسي يتمركزون في قاعدة "إن إيكر"، وأنهم يقومون منذ سنوات بحفر أنفاق تقود إلى مرتفعات "إن إيكر"، وأن طائرات تأتي بين الحين والآخر لمعاينة المكان. وأضاف بأن شيئا ما يحضر ربما يشبه ما حدث في رقان قبل عام وشهرين.

وفي يوم 23 أبريل نقلونا من المستودعات إلى جبال "إن إيكر"، وهي المرة الأولى التي أرى فيها الصحراء كما كنت أراها في الصور. شيء من الحمرة يطبع تلك البراري الرملية، وتظهر جبال الغرانيت وكأنها تتهيأ لمقاومة الغيلان أو وحوش الأساطير.

عشرات الدبابات، وشاحنات نقل الجنود، وأسلحة

أخرى ملفوفة في أغطية خضراء سميكة. وفي زوايا مختلفة من القاعدة العسكرية يتنقل عشرات الجنود بقمصان وسراويل قصيرة، وكأنهم على شاطئ بحر.

لا نعرف شيئا عما يخبئه الفرنسيون لنا. أنا اعتقدت أن الأمر يتعلق بحفر أنفاق لجر أنابيب الماء أو النفط، أو ربما يريدون بناء مواقع عسكرية جديدة أو ربما ينقبون عن مواد ثمينة فجاؤوا بالمساجين حتى لا يكشف أمرهم أو شيء من هذا القبيل.

قال لنا أحد الحراس "هذه "إن إيكر" ترحب بكم". وانتظرنا إلى حين وصول ضابط آخر. طلب منا النزول والاتجاه نحو فتحات مهيأة للدخول إلى أنفاق تحت الأرض.

كنا مقيدي الأرجل. نتحرك ببطء، داخل النفق المظلم إلا من مصابيح خافتة الإضاءة.

المسافة داخل النفق الذي تتفرع عنه أنفاق جانبية أطول مما نتصور، وضعت فيها أجهزة لا يسمح لنا بالاقتراب منها.

كنا نمشي صامتين، لا ندري إلى أين. وليس هناك من يصدر قرارا بالجلوس للراحة. واصلنا المشي إلى حيث لا ندري. ربما ساعتين أو أكثر.

نال منا التعب ما لا يمكنني وصفه. العطش، ورطوبة المكان، والسعال الشديد.

همس في أذني سعدون المالطي، وهو قهوجي اتهم بوضع قنبلة في نادي الضباط بمدينة سيدي بلعباس أدت إلى قتل ستة منهم: "تمنيت لو كان معنا صالح القبائلي." فلم أتمالك نفسي من الضحك، وقلت له

"أنت فعلتها وقتلت ستة ضباط.. أما صالح المسكين فلم يصل إلى غرفة نوم نيكول، ونلتما العقوبة نفسها".

واصلنا المشي، وكأننا نتجه نحو كوكب المريخ. سقط بعضنا من شدة الإعياء، لكن الحراس كانوا وراءنا بأسلحتهم وأحذيتهم الخشنة، يدفعوننا كقطيع أغنام. وفجأة سمعنا صوتا من الجانب الآخر إيذانا بقرب وصولنا.

كنت أحيانا أتحسس جدار النفق حيث التجاويف الصخرية الحادة. وكان صرير القيود يرسل في الآذان ما يشبه الوخز بالإبر.

ما إن بلغنا فوهة النفق المسدودة بالإسمنت، إلا من فتحتين صغيرتين، حتى تدافعنا نحو الخارج أشبه بغرقى أدركوا الشاطئ. كنا بحاجة إلى الهواء، غير أننا وجدنا أنفسنا محاصرين بجبال "إن إيكر" الصاعدة كناطحات سحاب.

تساقطنا كأموات.

راح الحراس يركلوننا بعنف وقد خارت قوانا. لا يمكننا المقاومة. فليضربوا ما أرادوا. الأكسجين أقوى من أقدامهم.

وبعد حوالي نصف ساعة، جاء ضابط بدرجة نقيب، سمعت أحدهم يناديه كابيتان فيران، وراح يتفحص الوجوه وكأنه يبحث عن شخص معين. ثم تكلم بصوت هادئ:

- من هذا المكان ستدخل فرنسا التاريخ مرة أخرى..

فهمس في أذني سي محمود:

- ومنه ستخرج بإذن الله..

وراح الضابط يكرر كلامه "..نعم في هذا المكان ستصنع فرنسا تاريخا جديدا، بعد رقان، وستكونون جزءا منه.. أنتم لا تعرفون الصين ولا سور الصين. أنا زرت الصين، وقرأت لافتة كتبها ماوتسي تونغ بيده – من وصل هذا المكان فهو بطل- وأنا أقول لكم اليوم، إن من وصل "إن إيكر" فهو بطل، وأنتم كلكم أبطال ولو كنتم من الموعودين بالموت شنقا أو بالرصاص.. لن تغادروا هذا المكان إلا بعد أن يعلق قائد الأركان الجنرال لافو أوسمة الشرف على صدوركم وينزع الجنرال آيري قبعته اعترافا لكم ويمنحكم أنواط الشجاعة. أنتم اليوم جزء من تاريخ فرنسا العسكري الباهر. أعرف أنكم تريدون مني تأويلا لكلامي. لكنني لن أقول أكثر مما قلت. ستبقون في هذا المكان، تحت خيمة نسجها التوارق احتفاء بكم. ستأكلون مما نأكل نحن منه. ولا تنسوا النظام الداخلي " لا تتكلم إلا بإذن، ولا تتحرك إلا بإذن، ولا تمرض إلا بإذن، ولا تمت إلا بإذن، إذا عوقبت لا تناقش. وإذا حاولت الفرار أكلتك النار.. وبقية الوصية تعرفونها. هل من سؤال؟ لا سؤال. ابقوا في أماكنكم، وانتظروا الأوامر قد تأتي بعد ساعة أو يوم أو يومين أو شهر أو سنة.. انتظروا الأوامر وكفى.

انصرف الضابط. ولم نقل شيئا. ليت صالح كان معنا. لا شك أننا لن نسمع لحظتها سوى كلمتي كلب.. رخيص.

وضعونا تحت خيمة صغيرة من وبر الإبل وكأننا

أغنام في زريبة. ولم يسمح لنا بالخروج، ولو للتبول وقضاء الحاجة.

مر عدد من العساكر وراحوا يرمون قطع الخبز اليابس وحبات الطماطم في مدخل الخيمة، ثم مرت شاحنة من نوع بيرلي وألقت برميلي ماء، ومضت. كنا نتابع المشهد ولا نفهم ماذا يراد بنا. تلك مظاهر التهيؤ لفعل شيء. لا نعرف هذا الشيء.

مر اليوم علينا داخل خيمة كنا نشعر وكأنها تتحول إلى قبر جماعي. كل الكلام الذي يدور بيننا لا يكفي للإجابة عن سؤال واحد. لماذا نحن هنا؟ كيف سنموت؟. وحده سي محمود كان يردد "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا" ويدعونا إلى استحضار الله في قلوبنا، لأن الموت حق.

في آخر الليل، جاء عسكري فرنسي، بدا عليه شيء من الخوف وهو يسعى ليخبرنا بشيء. قال بصوت مرتبك:

- الخيمة ضيقة صحيح.. لكن يجب أن تكون قلوبكم أوسع منها. لو كان الأمر بيدي لوضعت كل واحد في خيمة، لكنها الأوامر.

- أوامر من؟

قلت له وأنا أسحب ساقي من تحت أحد المساجين. فرد علي بما يكشف أنه يعرف الجواب مسبقا:

- القيادة. أقصد قيادة القاعدة العسكرية.

- ولماذا نحن هنا؟

- لا أدري.. ولكن في حدود ما أعرف أن شيئا سيتم فجر الغد.

- نعدم؟

قال واحد من المساجين، لم أتبين وجهه داخل الخيمة.

فصمت العسكري. قلت له:
- لا تنزعج. نحن محكـــوم علينا بالموت. فإذا كان هذا هو المقصود، فما جدوى الخوف من إخبارنا؟
- لا أدري.. ستعرفون ذلك صباحا.
- هذا.. إن بقينا أحياء.
قال الطاهر الجزار، المعروف بيننا باسم الديناميت، لكثرة حديثه عن هذه المادة المتفجرة. ولكن العسكري خرج مسرعا تجنبا لما لا يملك ردا له، بينما كبرت الأسئلة. ماذا نفعل وأجسادنا مقيدة بالحديد؟.
عم الخيمـــة صمت الموتى. وانكفـــأ كل واحد على ذاته.
الســـاعة الرابعة فجرا من يـــوم 27 أبريل 1961. لم يغمض لنا جفن.
الخيمة حولها عسكريون. وأصوات آليات وشاحنات تمر بين الحين والآخر.
حسين الدزيري المصاب بالربو، يسأل "ألا توجد في جيب أحدكم ســـيجارة؟ "فلا يرد عليه أحد، ويكتفي آخـــرون بالضحـــك. أحيانا نصير أكثـــر قوة أمام الموت، لأننا لا نملك ردا له، فلن نخسر شيئا عندما نخرج القوة الكامنة فينا. نســـيت في تلك الســـاعات مسعودة والعمري وكل الأقارب الذين يطلقون علي اسم "الفرماش" لكوني عشـــت طفولتي بدون أسنان، فقدتها في عـــراك مع أطفـــال وادي العثمانية حيث تقطن خالتي.
نســـيت كل شـــيء ثم اســـتحضرت كل الحكايات الصغيـــرة، وأحلاها يوم ختمت ربـــع القرآن الكريم، ولـــم أعثر على الصلصـــال الذي أمحو بـــه اللوحة،

فأخذت صابون مارسيليا معتقدا أنه سيفي بالغرض ويعطر اللوحة، لكن الشيخ الدراجي معلمنا في الكتاب، انتبه إلى ما قمت به، فعاقبني بالفلقة والضرب على الرجلين ثلاثين ضربة بعصا كأنها شحنت سما، وبعد يوم أعطاني حبتي حلوى، ليس تعبيرا منه عن اعتذار، إنما لكون والدتي أرسلت له قصعة من الثريد محشوة بلحم الديك الرومي وكيس حناء لزوجته.

جاء الضابط الذي حدثنا عن الصين وأن من وصل "إن إيكر" هو من الأبطال، وكعادته راح ينظر إلينا نحن المكدسين كبضائع في سفينة قديمة، ثم تنهد "حانت ساعة الحقيقة. بعد ساعتين، ستتحول "إن إيكر" إلى رماد. أعرف أنكم لا تفهمون ما أقول، لكن عليكم أن تعرفوا شيئا مهما اسمه اليربوع.. هل تعرفون اليربوع؟

لم نفهم ماذا يريد الضابط بقوله. فكرر السؤال "هل تعرفون اليربوع؟ وفي جلبة المهمهة، قال سي محمود "طبعا نعرفه؟" فأضاف الضابط "لكن لم يسبق أن رأيتم يربوعا ملونا؟". لم نفهم قصد الضابط. فرنسا ستفجر بعد ساعتين قنبلة ذرية.

أغلب المساجين لم يكن يعرف معنى كلمة ذرية، وأنا واحد منهم. فرغم العتمة رحنا ننظر إلى بعضنا، تملأنا الحيرة.

أضاف الضابط "أفهم أنكم لا تعرفون معنى القنبلة الذرية، النووية. هل تسمعون باليابان. بلد الرجال ذوي العيون الضيقة؟ إن كنتم تسمعون فلا بد أنكم سمعتم بهيروشيما وناغازاكي؟ وإذا لم تسمعوا بما فعلته قنبلتا أمريكا قبل خمسة عشر عاما في اليابان،

فستشرفكم فرنسا بمشـــاهدة تفجير قنبلتها الأخرى بعد رقان في "إن إيكر". ويبقى السؤال الذي لا أملك إجابة له، هل سنلتقي بعد ساعتين لنشهد معا مراسم تعليق الأوسمة على صدوركم، أم نزوركم في أقرب مقبرة في هذه الصحراء. يعني باختصار ســـتموتون، لأنكم جزء من القنبلة.".

وارتفع صوت ســـي محمود عاليا "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنـــا" ورحنا نردد وراءه "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا".

ظل الضابط واجما لا يكاد يتحرك من مكانه، بينما زاد عدد الجنود الذين يحرسون الخيمة.

وما أن أنتهينا من ترديد الآية القرآنية حتى ارتفعت أصواتنا بنشـــيد "إخواني لا تنسوا الشهداء..". وكان الصوت يرتفـــع بصورة جعلت الجنود يتراجعون إلى الخلف دون أن يدروا بذلك.

حـــرك الضابط رأســـه مـــرات، تعبيرا عن شـــعور بالخيبة. ثم مضى وقد أحنى رأسه إلى الأرض.

وقف ســـي محمود، وكان ذا صوت فيه بحة، وقال لنا "هذا أمر الله وقضاؤه، فلا راد لهما. وهذه فرنســـا عدو لا يريد لنا إلا الهلاك، فلا يرتجى منه خير. إن لم يقطعوا رؤوسنا بمقصلة الجلاد ميسونيي، ينهون حياتنا بالرصاص، أو يدفوننا أحياء.

سهل جدا أن تقتل ما دامت حرفتك الموت. وعندما نقلونـــا إلى هذه المنطقة، كان كل واحد منا يعرف أن مصيره لن يكون أســـوأ من الذين سمعنا صراخهم في بربروس.

جاؤوا بنا إلى الصحراء لنكون فئرانا يجربون فيها

أسلحتهم الفتاكة. ليفعلوا ما أرادوا، لأن أجسامنا طاهرة، وستسكن هذه الأرض المباركة، وسيأتي يوم يرحل فيه هؤلاء المجوس، وباسم دماء الشهداء ندعو الله العلي القدير أن يقوي إيماننا، ويجنبنا الأذى، إنه سميع مجيب.". ورفع يديه وقرأ الفاتحة بأعلى صوته، وكرر كل كلمة مرات عديدة، ونحن نبكي من شدة التأثر.

كنت أتابع ملامح الجنود الفرنسيين خارج الخيمة. كانوا أشبه بالمومياء، لا يتحركون، لكأن الذي يحدث داخل الخيمة له مفعول السحر.

بدأت أشعة الشمس تخترق الخيمة، وتتسلل بين تجاويف جبال "إن إيكر". ولم نعد نسمع صوت الشاحنات. صمت تام.

تقدم عدد من الجنود نحو الخيمة، وشرعوا يخرجوننا، في شكل مجموعات من سبعة إلى عشرة أنفار. وتم توزيعنا على محيط يصل أكثر من كيلومتر، تبعد كل مجموعة عن الأخرى بحوالي خمسين مترا.

قال لنا الجندي الذي طلب منا الجلوس على الأرض:

- - بعد ساعة سيكون التفجير، عليكم ألا تنظروا إلى مكانه الذي يبعد عنكم بحوالي عشرة كيلومترات، لأنكم قد تصابون بالعمى. وعليكم أن تظلوا منبطحين على بطونكم. إنكم قريبون من المكان، بل أنتم الأقرب إليه.

- وأنتم؟

قلت له وأنا أنظر إلى قمة "إن إيكر" ذات اللون

البركاني المثير للدهشة حين تلامسه أشعة الشمس. فقال لي ببرودة:

- سنكون في أماكن آمنة تبعد بأكثر من أربعين كيلومترا. أما القيادة فستتابع التفجير من قاعدة عسكرية تبعد عن موقع التفجير بخمسين كيلومترا.
- معنى هذا أننا فئران تجارب.
- أنظروا إلى تلك الأقفاص الموزعة هناك.. إن بها حيوانات، سيرى الخبراء وضعها، ووضعكم بعد التفجير.
- معنى هذا أننا لا نختلف عن الحيوانات.
- أعتقد أن كلامك لا يحتاج إلى جواب. الجواب الوحيد هو أن القنبلة سيتم تفجيرها بعد أقل من ساعة.

سكت قليلا ثم استطرد:

- سمعناكم تغنون داخل الخيمة، أما الآن فجاء دورنا لنغني نشيد محمودية الذي غناه جنودنا في تفجير رقان..

وأسرع إلى بقية الجنود المجتمعين، وراحوا يرددون نشيدا يمجد فرنسا وسلاحها النووي، أذكر بعض ما ورد فيه:

ها هي البقعة السوداء
حيث ولدت فرنسا النووية،
هنا
حيث كتب التاريخ لكبارنا،
يقال أن كل شيء يمر ويذهب في الحضيض،
ولكن بالنسبة لجنسنا،

دائما تحيا حموديا ..تحيا
ولكن أصواتنا ارتفعت عالية في تلك البرية لتغطي على ما كان يردده عساكر فرنسا:
قسما بالنازلات الماحقات
في الجبال الشامخات الشاهقات
نحن ثرنا فحياة أو ممات
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا .. فاشهدوا .. فاشهدوا

ذهب الجميع وبقينا وحدنا في تلك البراري نواجه الجحيم، ولا سبيل للهروب.

قدرنا أن نكون في "إن إيكر"، وقدرنا أن نموت بعيدا عن الأهل والأحباب.

الصمت.. الصمت..

جبال "إن إيكر" تتهيأ في كبرياء للمخاض. لا أحد يعرف أين دست القنبلة. هي في مكان ما. ولا أحد يعرف متى تنفجر. ولا أحد يعرف حجم الدمار الذي تخلفه.

في تلك الساعة نستعيد كل حياتنا، في صور متشظية، ونعيد ترقيع الصور المشوهة، وتستوقفنا لحظات الفرح كثيرا. ما دمنا مدركين لما ينتظرنا فلا معنى للقلق أو الخوف.

قال لي مفتاح، وهو شاب من برج الكيفان، ضبطوه في مستودع للذخيرة بالحراش وهو يعبئ كميات من البارود في كيس سميك، وأمام المحكمة اعترف بأنه كان يعد لتفجير مبنى العدالة:

- زوجتي حامل في شهرها الثامن، إذ بعد زواجي بشهرين أردت القيام بعملية فدائية انتقاما لدم

والدها الذي قتله معمرون تحت التعذيب في حقول بورجو بحجة أنه كان يعد مع جماعة الجبهة لإحراق محاصيل الحمضيات. ولا أعرف إن كنت سأرى ولدي أم لا. يساورني إحساس غريب، أنني سأراه بعد عامين أو ثلاث. إن كان ولدا سأسميه الجمعي تخليدا لجده، وإذا كان بنتا سأسميها زينب تخليدا لأمي..

- وإذا حدث وكان الحمل توأمين..

قلت لمفتاح وأنا أدفعه إلى مزيد الكلام عن السعادة التي تعيش بين أضلاعه.

- تحل المشكله ونسميهما الجمعي وزينب..
- أقصد لو كانا ذكرين..
- لم أفكر في ذلك ولكن سأسميهما الجمعي ومحمود.. تكريما للإمام سي محمود.
- وإذا كانا من الإناث؟
- أسميهما زينب تكريما لأمي والعارم تكريما للقابلة التي قضت عشرين عاما تساعد أمهاتنا لحظة الولادة.

الآن علينا أن ننتظر ماذا ستنجب "إن إيكر".

ورحنا ننظر في اتجاه تلك الجبال، منبطحين، أيدينا وأرجلنا مقيدة، ولا حيلة لنا في الهروب.

الطقس يميل قليلا إلى البرودة، ولكن على مد الأفق بدأت تتشكل ملامح السراب بفعل أشعة الشمس.

كنا نتأمل المكان كأننا غرباء.

وفجأة سمعنا انفجارا هائلا تصم له الآذان، أشبه ببركان، تبعه ما يشبه البرق، فأخفينا رؤوسنا بين أيدينا ووجوهنا ممرغة في التراب.

حدث هذا في أقل من ربع دقيقة.

أذكر أنني حاولت أن أنظر في اتجاه انفجار القنبلة، وإذا بعاصفة هوجاء ناجمة عن الانفجار تتجه نحونا، فالتحمنا بأيدينا ممسكين ببعض لتجنب هذا الإعصار الرملي القوي، لكننا لم ننجح فتطايرنا في ذلك المكان كأوراق الخريف.

كنا نصرخ، فتختلط أصواتنا بأصوات الحيوانات التي هربت من أقفاصها، وتدافعت في كل الاتجاهات.

كنت أسمع صوت سي محمود وهو يقول "لطفك يا رب.. لطفك يا رب". واستمرت العاصفة أزيد من دقيقتين.

فتحت عيني على دخان يتصاعد كالفطر في سماء جبال "إن إيكر" تتجه نحو الشرق، وفي موقع التفجير تراءت خيوط ضوء زرقاء.

وما لا أنساه مشهد طائرتين مروحيتين كانتا تعاينان المكان لكنهما فقدتا التوازن وغابتا في الدخان المنبعث من مكان التفجير.

نظرت حولي، لم أر إلا قليلا من رفاقي. كانت عشرات الجثث في العراء. قليل منهم كان يتحرك ببطء. لا أعرف كيف نجوت، ربما لكون بنيتي الجسمية أثقل من بعضهم. ربما. أو ربما هي الأقدار شاءت ذلك.

وقفت بصعوبة، ورحت أتنقل بين الجثث المترامية. كنت أبحث عن سي محمود، ناديت مرات، فلم يأت جوابا منه. سمعت صوت مفتاح:

- الله يرحم سي محمود.. اصطدم رأسه بصخرة.

- الله يرحمه.

- وأنا أشعر بألم في ساقي اليمنى، أعتقد أنه كسر.
- والآن ماذا نفعل؟
- نعود إلى الخيمة؟
- وأين هي.. ربما هي في أدرار أو بشار.
- والنفق؟
- سننتظر قليلا.. عندما يجتمع من بقي حيا.

لم يكن التنقل في المكان سهلا، إذ أننا صرنا نستنشق هواء حامضا، ولم نكن قادرين على تبين أي شيء بسبب كثافة الغبار والأتربة المتصاعدة في الجو. صرت أنادي من فرط الصدمة يا حسين، يا منصور، يا محمود، يا علي، يا عبد القادر، يا مختار، يا العياشي، يا عبد السلام، يا أحمد، يا يوسف.. كل من عرفته ناديت على اسمه. بل رحت أنادي على أسماء لا أعرفها تماما.

اجتمعنا، ولم يكن عددنا يزيد عن العشرين نفرا. كنا أشبه بالهاربين من جهنم. ماذا نفعل؟

قلت لهم "ليس أمامنا إلا أن نمشي في اتجاه تامنراست أو جانت.". رد علي منصور المقراوي بأن ذلك يعني العودة إلى الجحيم. وبعد نقاش، أخذ فيه رأي الجميع، قررنا أن نتجه بمحاذاة جبال "إن إيكر"، ربما يكون بوسعنا التخلص مما نحن فيه. وإن كنا ندرك منذ البدء أن في الأمر مجازفة.

وما أن هممنا بالمشي حتى قال المختار الحراشي "من رأيي أن ننقسم إلى مجموعتين، واحدة تتجه بمحاذاة "إن إيكر" كما اتفقنا والأخرى تأخذ المسار المعاكس، فقد أبصرت أثناء إحضارنا إلى هذا المكان

مســـاكن للتوارق، ربما تكون في ذلك نجاتنا". فلم يكن من بد الأخذ بهذا الرأي، وانقسمنا إلى مجموعتين، كنت ضمن التي سارت بمحاذاة "إن إيكر".

كان الغبار يتزايد، ثم يرتفع إلى أعلى، مع حرارة لم يسبق أن شعرنا بها، تصيب أجسادنا بحكة غريبة.

مشـــينا دون أن ننظر إلى الخلـــف. وكأننا نعرف أن الفرنســـيين لن يكونوا مشـــغولين بنا، فقد أنهوا فعلتهم، وهم ينظـــرون إن كانت ناجحة أم لا. نحن لا نعنيهم في شيئ. والأوسمة التي وعدنا بها الضابط بقيت في "إن إيكر".

كنا رغم الإعياء والتعب نسرع الخطى رغم القيود التي تمنعنا من السير الحثيث، وخاصة أولئك الذين أصيبوا بجروح وكدمات.

كان همنا أن نبتعد عن مكان التفجير والبحث عن ســـبيل للنجاة. وكلما ابتعدنا عن المكان إلا وشعرنا وكأننا لم نتقدم خطوة واحدة. إنها الصحراء. ليس معنا ماء أو طعام. كنا نقاوم في صمت.

وبعد ثلاث ساعات، استرحنا في ظل صخرة تنام في سفح القمة الأخيرة من "إن إيكر". المكان آمن، إلا من حرارة الجو التي تزداد حموضة.

مرت طائرتان عســـكريتان، ولا أعتقد أنهما كانتا تبحثـــان عنـــا. ربما كانتـــا تقلان ضباطـــا حضروا التفجير. نحن ضحاياه لن يبحث عن أحد. هم يعرفون أن الذي يريدونه هو تلك الجثث. سيعدونها واحدة واحدة ويكتشفون اختفاء عدد من المساجين. وحينها سينسى قادة قاعدة "إن إيكر" كل شيء ويشرعون في البحث عن بقية الجثث أو الأحياء من المساجين، لأنها

دليل إدانة لما قاموا به.

شعرنا بالعطش والجوع. ففكر بعضنا في أكل الأعشاب التي تنبت في السفح، لكن شعبان ولد القايد وهو قليل الكلام نصح بعدم الاقتراب من هذه الأعشاب لأنها ملوثة بغبار القنبلة، وهي مسمومة. فصمت الجميع. واقترح علينا ألا نغادر المكان إلا ليلا، لأن المكان مكشوف نهارا ويسهل القبض علينا. وعلى مضض قبلنا النصيحة.

الجوع والعطش وقلة النوم.

قبل المغرب، أبصرنا قافلة إبل تسير ببطء، بعدد خمسة أو ستة جمال، أصحابها ملثمون، هم في غالب الظن من التوارق.

مرة أخرى قال يوسف "لا تقربوهم، وابقوا مختبئين هنا.. حتى نتبين الأمر إن كانوا منا أو منهم.". وكلما اقتربوا ازددت يقينا بأنهم الذين ينقذوننا. لم يعودوا بعيدين عنا، فاقترحت أن أقصدهم وحدي ولا يهم ما سيكون. ولم أعر لكلام شعبان أي اهتمام.

تقدمت ثلاثين أو أربعين خطوة في اتجاه الطريق الذي سلكته القافلة.

ناديت بأعلى صوت "يا أهل الخير.. يا أهل الخير". فتوقفت القافلة، واستدار الجميع نحوي.

ثم تقدم واحد منهم بينما بقي الآخرون في انتظاره. تقدمت أنا.

صرنا قريبين من بعضنا.

- آش اللي جابك هنا؟

قال لي الرجل الملثم، وهو ينظر في كل الاتجاهات،

وكأنه أحس بشيء غير طبيعي. أجبته:
- فرنسا الملعونة..
- وحدك؟
- لا.. معايا جماعة.. عشـــرة رجـــال. محتاجين ماء وطعام.
- لازم مشية يوم..
- وجيش فرنسا..
- طريقنا ما يعرفها لا جن ولا جيش.
- ساعدونا.. الله يجازيكم.
- نشاور رفاقتي..
- إذا بقينا هنا.. ميتين وربي كبير.

أشـــار الرجل إلى رفاقه، فجاؤوا، ثم تقدمنا جميعا نحو الصخرة الكبيرة حيث المساجين. ووجد أصحاب القافلة أنفســـهم في وضع صعب، فلا يمكنهم الذهاب دون مســـاعدتنا، كمـــا أنه يصعب عليهم مســـاعدتنا ونحن بمثل هذا العدد. قال شعبان:

- يا أهـــل الخير.. نحن لا نطلـــب منكم أكثر مما يمكنكـــم القيام به معنا. فلا نريـــد الإبل، وأقصى ما نطلبه قليل من الماء لمواجهة مشـــقة الســـفر. وإن كانـــت لديكم ألثمة نغطي بها وجوهنا، فهذه العواصف تزداد بعد تفجير القنبلة الملعونة.

فقال كبيرهم، وتبدو عليه الطيبة:

- ســـمعنا صوت انفجار، واعتقدنا أن فرنســـا تفجر الجبل للبحث عن النحاس.
- بل جاءت بنا نحن، وعددنا قرابة المائتين، لتجرب فينا سلاحها، فمات من مات، وبقي حيا من تراه أمامك.

قالها يوسف وقد دمعت عيناه من شدة التأثر. فقام

واحـــد من الملثمين، وقال بصوت رجولي فيه حرارة أهل الصحراء وأشار إلى كبيرهم:

- هـــذا كبيرنا واســـمه مدني، ونحـــن لا نأتمر إلا بأمره، وليس معنا سوى ستة من الابل، أعتقد أنها تكفينا.. فيها البركة. لنصبر حتى غروب الشمس، ونتوكل علـــى الله، بعضنا يركب، وبعضنا الآخر يمشي، ونتداول إلى أن نصل المكان الذي لن تعثر لكم فيه فرنســـا على أثر. نحـــن إخوانكم، نالنا ما نالكم. ولا حل لنا إلا الصبر والمقاومة.

أومأ مدني برأسه إلى صاحبه موافقا على رأيه. ثم شـــرب الجميع من قربتي ماء كانتا بحوزة القافلة. وراح مدنـــي يحدثنا عن حياة التوارق القاســـية في هذه المنطقة، وكيف أنهم كانوا يشعرون منذ ثلاث سنوات أن فرنسا كانت تحضر لشيء ما في "تان أفلا" بجبال "إن إيكر" وفي عين مقل ومناطق أخرى.

مالت الشمس إلى المغيب، وكان لحديث التوارق وقع على أنفســـنا. خاصة عندما قام واحد منهم بفك قيود ثلاثة منا، باستخدام آلة حادة تشبه الخنجر المعقوف.

مشـــينا، ومن عادة التوارق ألا يتكلموا كثيرا أثناء الســـفر، ومن كرمهم أنهم تركـــوا ظهور جمالهم لنـــا نحن، ولـــم يتوقفوا هم عن المشـــي، حتى بلغنا أحد الأودية، إذ أشـــاروا علينا بأن نرتاح قليلا، وعند منتصف الليل نواصل طريقنا إلى حيث يقيمون.

اتجهوا إلى القبلـــة وصلوا جماعة، وما زلت أذكر مشهد أدائهم للصلاة في ضوء القمر.

كان رهيبا، يحمل الانســـان إلى عوالم روحانية لا يمكن وصفها.

بدأنا نحس بشيء من الحرية بعد سنوات من العذاب والقهـــر وانتظار المقصلة. في تلك الصحراء كنت أنظر إلى النجوم وأقول سبحان الله ما أوسع الكون وما أضيق الحرية.

قـــام مدني، وقال لنتوكل علـــى الله فأمامنا خمس ساعات على الأقل للوصول إلى ديارنا. ومشينا.

لم تزل حموضة الطقس تنتشر في تلك المناطق. اعتقدت في بادئ الأمر أن التوارق لا يحسون بها، لكن مدني قال لي "اللثام لا يمنع الحموضة من ملامسة الأنف.".

كنا نتداول ركـــوب الجمال، في حين كان مدني ورفاقـــه يرفضـــون الركـــوب إلى أن شـــارفنا على الوصول، حيث تـــراءت من بعيد بناءات صخرية غير منتظمـــة، فنزلنا، وكأننا صرنـــا قريبين من ديارنا وأهلنا وأقاربنا. نحن في الصحراء، لكننا نشـــعر بأن أبواب بيوتنا تدنو منا.

لم نعد نذكر الســـجن والمقصلة والأنفاق الرطبة والتفجيـــر النووي. إننا نلامـــس خيوط الحرية في لثام مدني وأوبار الإبل الصبورة.

سمعت آذان الفجر.

ولكـــن الإعياء كان يدفعني إلى أن أســـتلقي تحت أقرب جدار لأنام. وذاك هو شعور رفاقي الآخرين.

اتكأنا على جدار صخـــري لبيت مدني، الذي لم يطل انتظارنا له حين جاء ومعه قطع من الرغيف:

- هذه "تاجله".. الرغيف الذي تأكل منه يوما فيشبعك أسبوعا. ليس فينا من لا يتزود به في سفره.

قال مدني، وهو يوزع علينا تلك الكسرة المطبوخة تحت الرمـــاد. ثم جـــاءت زوجته بلحافها الأســـود،

وسمرتها الفاتحة، باسمة الوجه، ووضعت إناءين من المـــاء وحليب النوق، وانصرفت دون أن نســـمع منها سوى "الله يحميكم".

استســـلمنا للنـــوم، وكأننا من بقايـــا أهل الكهف. وحين أفقنا كان مدني يجلس وحده إلى جانب ناقته وكأنه يحرس المكان. لم ينم أبدا. وما نســـمعه عن التواراق من أنهم قوم لا ينامون إلا قليلا تأكدت منه مع مدني.

نظر مدني إلينا ونحن شعث غبر كأننا هاربين من قبورنا، وراح يضحك، ثم أردف:

- الساعة قاربت العصر..

رحنـــا ننظر إلى بعضنا البعـــض غير مصدقين. فزاد مدني على ذلك قائلا:

- ستأكلون شـــيئا مما رزقنا الله.. ثم نتوكل عليه لإبعادكـــم من هذا المكان.. لأنكـــم لو بقيتم هنا سيقبضون عليكم.. وعلينا.

ولم يكد يكمل كلامه حتى ظهرت نســـوة تارقيات يحملن طعاما وأواني حليب. وأكلنا حتى التخمة.

قلت لمدني، وأن أضع يدي على كتفه الأيمن:

- وماذا نفعل مع هذه القيود؟

فأشـــار بيده على بعض الرجـــال، الذين ما أن فهموا الاشـــارة حتى جاؤوا بآلات حادة وشرعوا في كسر القيود، إلى أن أتموهـــا جميعا. الآن أصبحنا أحرارا.

قلت لمدني:

- والآن إلى أين نذهب؟

- إلى بيوتكم إذا اجتزتم ألفي كيلومتر مشـــيا على الأقدام.

- في هذه الحالة أنا سـأبقى هنا إلى أن تأتي فرنسا لتعيدني إلى بربروس.

وأضاف شعبان:

- لا يهم.. سنمشـي ألفين أو عشـرة آلاف.. المهم أن تدلنـا على الطريق.. والأهم من كل هذا.. أن تزودونا بقنطار من كسرة تاجله.

فضحك من كان حاضرا. قال مدني وهو يشير بيده إلى طريق تتخلله بعض الجبال يتجه شرقا:

- من هنا تكون النجاة.. وأرى أن تتوزعوا على ثلاثة قوافل، وكأنكم توارق. ملثمين مثلنا. وستصلون إلـى حيث لو بقي الفرنسـيون ألف سـنة هنا ما عرفوا هذه الطريق.

رحنا ننظر إلى بعضنا، كإشـارة منا إلى أننا لا نفهم قصد مدني جيدا. ففهم الأمر وقال:

- ستمر بعد سـاعة أو أقل قافلة متجهة إلى جانت، وسـيذهب ثلاثة منكم مع القافلة التي لن يخرج منها سـركم أبـدا. إنهم أحفاد الشـيخ آمود بن المختار. يموتون ولا يفشـون سرا. ما عليكم إلا اختيار من ترونه أحق بالذهاب إن كان من سكان أقصى الشرق، الوادي أو بسكرة أو ورقلة..

تكلم شعبان وهو يحاول وضع اللثام على الطريقة التارقية:

- لـن نجد أفضل مـن منصور المقـراوي فهو من المسـيلة، ومفتاح الـذي ينتظر مولـودا جديدا فزوجته في بسـكرة، وأنا لأنني سـأكون أفضل رفيق لهما.

- تبارك الله.. تبارك الله.

قال مدني، وهو يساعد شعبان على وضع لثام أزرق قاتم.

وأكمل قوله:

- وبعد صلاة العشـــاء ســـتمر قافلة الحاج المولدي وطريقها عين صالح، ويمكن أن يذهب معها أربعة أو خمسة لأنها من أكبر القوافل التي تمر من هنا، ولا يشك فيها أحد. ثم تمر فجر الغد قافلة أخرى تتجه نحو بني عباس، وهي مأمونة الجانب.

قلت لمدني، وأنا أتحسس آثار القيد في قدمي:

- إن أمد الله في أعمارنا وعجل الله بتحرير الجزائر، ســـأزوركم، لأنني، مثل إخواني، لا يمكن أن أنسى ما صنعتم معنا.

- الواجب. خير ربي، واحنا خاوة.

وجلســـنا في مكان يظلله ســـعف النخيل، فهمت من أحـــد التوارق أنه خاص بالولائـــم والأفراح، ووجدنا الطعام جاهزا، وحولنا تحلق نسوة وأطفال، كنا نقرأ في عيونهم كثيرا من السعادة.

شـــعرنا وكأن الدنيا أوسع ما يكون بعد الذي كنا فيه من بربروس إلى "إن إيكـــر". وانتظرنا القوافل لنرحل.

ورحلنا في أمان.

حيـــن وصلت أنا ومفتاح ومنصور عين صالح، كنا نتفادى الأماكن التي يتردد عليها الجنود الفرنسيون، وتنكرنـــا في زي تجار ماشـــية لنتجـــه نحو غرداية فالأغـــواط والجلفة، وبعـــد أربعة أيـــام وصلنا إلى المسيلة حيث اتصل منصور بصهره موسى الذي أبقانا فـــي بيته ثلاثة أيام، إلى أن هدأت عاصفة التمشـــيط التي قام بها الجيش الفرنسي في جبال بوطالب.

وفـــي يـــوم 13 مايـــو اتصل بنا أعضـــاء من جيش

التحرير أوصولنا عبر مسالكهم الخاصة إلى أهلنا، إنما بعيدا عن بيوتنا. تاركين وراءنا بربروس و"إن إيكر" وحكايات صالح القبائلي وقافلة مدني التارقي، وكل ما عانيناه في رحلة الهروب التي استمرت أسبوعين كاملين. ولم أعرف أن الإشعاع النووي امتد إلى جسمي إلا بعد أن بدأت أشعر بضيق في التنفس والتهاب متكرر في العينين، وآلام في الأسنان. وإن لم أمت، فأنا مدين لله سبحانه وتعالى بعمر طويل، فقد نجوت في العملية التي قمت بها في قسنطينة ولم أصب إلا بجروح، وحكم علي بالإعدام ولم ينفذ في، وجعلوا مني فأر تجارب في "إن إيكر" لكنني ما زلت حيا وتلك كرامات الثورة.."

هذا ما كان يقوله أبي، وهو يستحضر "إن إيكر" وما عاناه في السجن. ومثل أبي كثيرون. يمكنني أن أتوقف في أي مكان وأسأل أي بيت هل عندكم شهداء فيقولون بل ثلاثة أو أربعة. هذا قدرنا، ونحن نكون في ذروة السعادة عندما نسمع المجاهدين يروون حكاياتهم بكثير من الصدق والتواضع.

5

كنت أتابع مخلوف وهو يروي حكاية أبيه وتفجيرات "إن إيكر"، وأقول "لقد كذبوا علينا حين أوهمونا أن فرنسا لم تسئ للشعوب التي استعمرتها.. ألم يكن أبي جان بيار مجرد أداة لتنفيذ سياسة القتل والدمار؟".

قلت لمخلوف، ولما تزل مشاهد "إن إيكر" تتزاحم في رأسي:

- هل دونتم هذا التاريخ؟

- نحن؟ لا.. لا نجد الوقت لتدوينه.

وأطلق ضحكة، متبوعة ببصقة خارج السيارة.

- إنه تاريخ يستحق التوثيق.

أعاد ترتيب طاقيته الأرجوانية، وأجابني:

- إن كنت تريد الحقيقة، يؤسفني أن أقول لك إن الجزائريين، عيبهم أنهم يصنعون التاريخ ولا يحسنون كتابة التاريخ.. تعرف لماذا؟

- .....

- لأنهم إما يخافون من التاريخ أو يتواضعون أمام

التاريخ.. وبين الخـــوف والتواضع يضيع التاريخ فنكتفي بروايته لمن نحب..

- غريب أمركم..

- أين الغرابة مـــا دمنا نملك كثيـــرا من التاريخ وقليلا من الذاكرة وتلك هي المشكلة.

- .....

- أحيانا عندما أحدث الناس عما عاشـــه أبي أشعر أن الذاكرة أوسع من التاريخ.

ليس لي ما أقول. أغلقت ورائي "إن إيكر"، وســـألت مخلوف عن المســـافة التي تفصلنـــا عن عنابة، فقال أقـــل من ســـاعة، وراح يبحث عن موجـــة ضائعة في الراديو وهو يقول "الآن موعد أخبار العالم.. أنا أحب السياســـة.. وربما هي حرفة كل من يملك ســـيارة أجرة".

قلت له ضاحكا:

- يقولون إن أفضل من يتحدث في السياســـة وينقل الاشاعة هو الحلاق.

- وســـائق الأجرة والإســـكافي.. وأســـوأ من يصنع الاشاعة هو السياسي نفسه.

- وماذا يقولون في أخبار اليوم.. فأنا لا اعرف لغتكم العربية؟

- لا شيء ولكن الأمور بين العرب واليهود هذه الأيام ليســـت على ما يرام، والكلام عن استخدام البترول كســـلاح وارد جـــدا هذا ما تقولـــه إذاعة البي بي سي..

قالت ماري وهي تغالب النعاس:

- هل وصلنا؟

فـــرد عليهـــا مخلوف وهـــو يلاعب ســـيجارته يمينا ويسارا:

- إن كنت مستعجلة ســـأضغط على دواسة السرعة ونصل إما عنابة أو المقبرة المجاورة لها..

فصمتت دون أن تنبس بكلمـــة واحدة، ولم يكن مني إلا أن قلت له:

- نحـــن جئنا لنـــزور مقبـــرة وليـــس الإقامة في مقبرة..
- في عنابـــة توجد مقابر كثيـــرة، للعرب واليهود والفرنسيس..
- مقبرتنا في سوق أهراس.
- إذن لماذا الذهاب إلى عنابة؟
- لأنها الأقرب إلى سوق أهراس.
- أعرف.. لكنني الأقرب إلى سوق أهراس.
- .....
- يمكنني أن أنقلكم إلى ســـوق أهراس، وأبقى معكم إلى حين إكمال زيارتكم.

قالـــت مـــاري، وكأنهـــا تســـعى لتليـــين علاقتها بالسائق:

- فكرة معقولة.. ســـيارة واحدة نقضي بها حاجاتنا أفضل من تبديل السيارات من مكان إلى آخر.

قلت لماري وأنا أدعي شيئا من التردد:

- صحيح ولكن..

فأدركني مخلوف بجواب سريع وفاصل:

- المال.. لا يهم، سآخذ النصف، والباقي أعتبره هدية زواجكما..

رحت أنظر إلى ماري وهي تنظر إلي كما لو أننا في

أحد أفلام بولموندو الساحرة، ثم انفجرنا ضاحكين.
قلت لمخلوف:
- هيا.. إلى سوق أهراس، وسنزور عنابة أثناء عودتنا.
رمى مخلوف سيجارته خارج السيارة، وسحب علبة من التبغ الأخضر، وصب قليلا منها في أعلى فمه. وتذكرت البشير الذي كان يضعها أسفل الفم. قلت لمخلوف:
- ما هذا الذي تضعونه في أفواهكم؟
- الشمة..
- أهي مخدر؟
- أعوذ بالله.. إنها تنبه الأعصاب. فهل تريدني أن أقطع منعرجات سوق أهراس بسيجارة فارغة. الشمة يا صديقي.. هل تريد قليلا منها؟
- لا.. لا..
ثم استدار نحو ماري:
- وأنت ألا تجربين قليلا منها.. بعض النساء عندنا يتناولن الشمة إما عن طريق الفم أو الأنف.. أمي واحدة منهن. لا تنام إلا بالشمة.
- شكرا.. فأنا أكتفي بالعطر..
- العطر.. نحن نستخدمه مرتين في العام، عيد الفطر وعيد الأضحى، وربما عند الزواج. أما الشمة فهي مقدسة.
كنت أسمع صوت أغنية ليس فيه سوى دفوف وناي وغناء يخترق الحواس:
- هذا غناء جزائري؟
- طبعا.. وهل تعتقده إيطاليا؟ هذه أغنية "حيزية"

التـــي يؤديها عدد من المطربين الجزائريين منهم درياســـة الذي نســـمعه الآن، وخليفي أحمد وعبد الحميد عبابســـة والبار اعمر وغيرهم.. وحيزية هي فتاة من الصحراء أحبها ابن عمها ســـعيد لكنها ماتت قبل أن يتزوج منها، فخلدها شاعر من قريته في هذه القصيدة التي نحب الاســـتماع إليها لأنها تتحـــدث عن الحب الصـــادق العفيـــف الخالي من النزق.

- هل يمكننـــي أن أحصل عليها وعلى أغان مثلها في السوق؟
- طبعا.. تجار الأســـطوانات موجـــودون.. في عنابة سنعثر على كل شيء.
- وبورقعة؟
- تعرف بورقعة؟
- وبقار حدة.
- تعـــرف كل هؤلاء وتطلب منـــي أن أوصلك إلى سوق أهراس؟
- ســـمعت الشـــيخ بورقعة عند جزائري من ســـوق أهراس في فرنسا..
- الجزائريـــون فـــي فرنســـا لا يعيشـــون إلا مـــع الأسطوانات القديمة والشمة والرسائل التي تصلهم بعد شـــهر. فأنا لي عدد من الأقـــارب يقيمون في جنوب فرنسا.

كان مخلوف يقود بسرعة، ويتجاوز الشاحنات البطيئة، ويعلق بأسلوبه الساخر على كل ما يتحرك أمامه.

تركنا عنابة وراءنا بعد انعطاف على طريق جانبي ضيق متجهين نحو سوق أهراس.

الساعة الواحدة زوالا.

شعرت أن ماري بحاجة إلى قليل من الراحة، فطلبت من مخلـــوف التوقف لـــدى أقرب مدينـــة أو قرية، فاســـتجاب لرغبتنا، وتوقفنا على حافة الطريق أمام عدد من المباني القديمة، ومسجد ومقهى وعدد قليل من الدكاكين، ولكن الأشـــجار كانت كثيفة، تمنح المكان راحة.

عدد من الرجال المسنين ينظرون إلينا ويتهامسون، فنحن غرباء عن المنطقة.

دخلنا المقهى. ولم يكن به ســـوى عدد من الرجال محلقين حول طاولة كان أصحابها يخوضون معركة مع الدومينو، ويضربون الأحجار بشـــدة للتعبير عن التفوق أو الخسارة.

أحضر لنا صاحب المقهى مشـــروبات غازية ساخنة وثلاثـــة فناجين قهـــوة وقارورة مـــاء، ولاحظت أنه اعتنى كثيرا بنا.

كانت ماري مشـــدودة لما ترى. واستأذنت صاحب المقهـــى في أخذ صورة معه ومـــع جماعة الدومينو الذين أحاطوا بها فرحين جدا.

كنت في قرارة نفســـي أقول "ماذا لو عرف هؤلاء أننـــي ابن جان بيـــار مالو الذي لا أعـــرف ماذا فعل بســـكان هذه الجهة..لكنني أجزم أن أبي ليس بريئا. هو شاعر في الليل إنما يستخدم الرصاص في النهار. وماذا فعل البشير؟ هؤلاء الناس البسطاء لا هم لهم إلا أن يعيشوا سعداء مع الدومينو والقهوة الباردة. ماذا فعلت بهم فرنسا. سأفضحها."

رفـــض صاحب المقهى الديناريـــن اللذين أعطاهما

إياه مخلوف قائلا "عيب.. لن أقبض من ضيوفنا".

ليت جدي يسمع كلام صاحب المقهى. إنه لا يعرف نابليون ولا بيتان ولا أوليفيي مالو. لقد انغرز كلام الرجل كخنجر في قلبي.

واصلنا الطريق نحو سوق أهراس. كم هي جميلة تلك المناظر الجبلية الهادئة. وكم هي ندية هبات النسيم التي تلامس وجوهنا بغتة.

مرت لحظات صمت، كانت ماري تنظر من وراء زجاج السيارة الخلفي نحو الوادي الجاف المحاذي للطريق، وكنت أتأمل الأفق الذي تقطعه التواءات ومنعرجات حادة، وأما مخلوف فكعادته يتسلى بسيجارته يمينا ويسارا، وأحيانا يعدل قبعته الأرجوانية، أو يمسح شواربه.

مررنا بأكثر من قرية، تتشابه كلها في أنها فقيرة، إذ على جانبي الطريق يجلس الرجال من مختلف الأعمار، أغلبهم يرتدون ملابس تقليدية، وقليل منهم من يرتدي لباسا عصريا تنقصه الأناقة اللازمة. يبدو أنهم يقضون يومهم في تأمل السيارات الغادية إلى سوق أهراس والرائحة منها، شأنهم في ذلك شأن مرتادي مقهى فيرميني الذين لا حديث لهم إلا أخبار البلد الذي لم يعودوا يحملون منه سوى ذكريات تدمي قلوبهم.

ارتفع صوت الآذان، ونحن نقترب من سوق أهراس. قال لي مخلوف:

- عادة أصلي في الوقت.. ولكن في أغلب الأحيان أصليها مجتمعة عند عودتي إلى البيت في آخر المساء.. وهي عادة سيئة. أنتم تختلفون عنا..

- أنا لا أمارس مثل هذه الطقوس، رغم أنني كنت أحيانا

أحضر القداس مع جدي في كاتدرائية أميان.
- وزوجتك؟
قالت ماري وهي غارقة في صمتها:
- مثل أنطوان.. إيماني ضعيف. ولا أشعر أنني مؤمنة إلا إذا حضر الطعام فيتلو أخي شيئا من المواعظ التي لا أحب منها سوى كلمة آمين.
- حتى نحن في ديننا نقول آمين كثيرا، بل إننا نستعملها في كل وقت، وأحيانا في غير محلها.. المهم أن آمين هي تعبير عن إيمان ولو محدود.
مرت خمس ساعات كأنها عمر كامل، فحديث مخلوف عن القنبلة النووية ومناظر الطريق الصعب الرابط بين قسنطينة وسوق أهراس يدفعني إلى التساؤل عن الثمن الذي دفعته فرنسا لتحتفظ بهذه الأرض، والثمن الذي دفعه أهل هذه الأرض ليعيشوا أحرارا ولو فقراء.
قال مخلوف ونحن نجتاز ربوة عالية:
- سوق أهراس وراء هذه الربوة..
كأنني أكتشف العالم من جديد. سوق أهراس التي رأيتها في رسائل أبي، وسمعت البشير يتحدث عنها بحرارة، أجيئها اليوم لأزور قبر أبي الذي رأيته مرة واحدة وعشت معه في الصور والكتابات.
سوق أهراس، قرأت في القاموس أنها تعني مدينة الأسود. هادئة تبدو من بعيد، ليست منبسطة كما تخيلتها، وهي لا تختلف عن المدن التي تحاصرها الجبال. الآن فهمت لماذا دفع أبي فاتورة الموت بعيدا. هذه المنطقة لا يعرفها إلا أهلها، فالفرنسيون دخلاء ولا يمكنهم أن يحفظوا المسالك والطرق الوعرة.

قلت لمخلـــوف وهو يقترب من مدخـــل المدينة في هبوط سريع:

- خذني إلى المقبرة.

- سأسأل عن مكانها.

كنـــت في حال من الدهشـــة، إذ أن قلبي كان يخفق بصورة جعلت ملامح وجهي تتغير فأزداد حمرة، أما ماري روز فإنها كانت تنظر يمينا ويسارا:

- أنظر أنطوان.. هذا مسرح المدينة.

قالت ماري، بينما توقف مخلوف يســـأل عن مقبرة النصارى. وكان الرجل يدله على الطريق، ويشـــير بيده إلى اتجاهات مختلفة.

- ليست بعيدة.

قال مخلوف، وهو ينتقل من شـــارع إلى آخر حتى وصل منعطفا يتفرع عنه طريقان ضيقان. سأل رجلا يتكئ على جدار عن جهة المقبرة فدله، إلى أن قابلنا سورا عاليا.

- إنه سور المقبرة، والباب من الجهة الخلفية.

أشار مخلوف بيده، وأسرع وكأنه أحس بما أشعر به في هذه اللحظة، وركن السيارة بجنب السور.

حين نزلت من الســـيارة، كنت أشبه بمن يجر وراءه جبلا.

أمســـكت بيد ماري ومشـــيت بخطـــى بطيئة، بينما كان مخلوف يسبقنا نحو الباب الحديدي الذي أكله الصـــدأ، ويدفعه بيـــده. كان مغلقا، فراح ينادي على الحارس. ورحت أطل من أعلى السور، ليس هناك ما يشير إلى وجود بشر في المقبرة. سوى الأموات.

تسلق مخلوف السور، وقام بفتح الباب، بعد أن فكك

سلكا معدنيا أحكم به غلق الباب.

دخلنا، ولم يكن المكان نظيفا. لكأن المقبرة مهجورة لا يأتيها الناس. ولا يعتني بها أحد.

تذكرت البشير حين سألته عن قبر أبي فأجابني " ستجد اسمه محفورا على رخامية بيضاء، في رابع صف على يمين باب المقبرة.". واتجهت يمينا أبحث عن الصف الرابع. وكانت ماري تتبعني بينما ظل مخلوف واقفا قرب الباب.

رحت أقرأ الأسماء. ميشال فارنيي، بول سان كلو، جان كلود بارتيللي، مارك سيون، جان بيار مالو.. وسقطت على القبر. رحت أحضنه وأبكي. جذبتني ماري بقوة فتمزق قميصي، لكنني واصلت احتضاني للرخامية التي نقش عليها اسم أبي وتاريخ ميلاده ووفاته.

بقيت على هذه الحال أكثر من نصف ساعة، وماري واقفة إلى جانبي، لا تحرك ساكنا ، تحمل باقة الورد التي انتقتها جانيت من حديقة جدي.

قلت لها بعد أن استعدت تركيزي:

- اتركيني وحدي فلي كلام مع أبي.. لا أريد أن يسمعه غيره. اعذريني يا حبيبتي إن كاشفت أبي في هذه اللحظة.

ربتت على كتفي ثم ذهبت إلى حيث يقف مخلوف السائق.

جثوت على ركبتي وقلت لأبي:

سامحني يا أبي إن وصلت قبرك متأخرا وقد بليت عظامك ونسيك الناس.. سامحني إن قلت لك ما لا يرضيك وأنت الذي قلت لي في رسالة تركتها

لي مع صديقك البشـــير "اعلم أنك معي لا تفارقني صورتك، أنـــا الذي رأيتك مرة واحـــدة، ولم أنس ابتســـامتك التـــي تذكرني بكاترين حيـــن التقيتها أول مـــرة على الجســـر الحجري. أنـــت لم تغب عن عيوني لحظة واحدة، وأعـــرف أنك في غيابي تكبر مثل الوردة التي تتفتح يوما بعد يوم، ونشـــم عطرها فنزداد تعلقا بها.

أنت الـــوردة التي أتمنى عطرهـــا وأنا على جبهات المـــوت. لا تنزعج من كلمة الموت، لأن أباك يعيش الموت كل يوم، لهذا لا يزعجه شيء اسمه الموت".

وقلـــت لي يا أبي "أعرف أن جدك لا يكلمك إلا عن فرنســـا، لا تنزعج منه، هو هكذا من طينة لا نفهمها نحن، ربما لأنه نشأ يتيما فوجد أن له أما تسمى فرنسا وأبا يسمى فرنسا وإخوة يحملون ألوان فرنسا.

أحـــب جدك كمـــا أحبك، وأحب أمـــك كاترين كمـــا تحبني هي، واعطف علـــى جانيت كما تعطف علينا جميعا" وقلـــت لي يا أبي "إن عدت لن أمنحك ســـوى الحب الذي خبأته طويـــلا من أجلك، وإذا لم أعـــد فلا أريدك أن تنزعج كثيـــرا وتحزن، لأن من كانت مهنتـــه التحاور مع الموت يمكنه أن يخســـر الجولة فيرحل بعيدا" وقلت لي أيضا "أبوك يا أنطوان لم يكتب شـــيئا بعـــد وصوله إلى عين الزانة ســـوى قصائـــد أهداها إليك أنت وحـــدك، ومتى وصلتك، افعل بها ما تشـــاء، احفظهـــا أو مزقها، أو صب عليها زيتـــا حارقا. هي لك، وأنا لـــك. فكن لي أيها الابن الحبيب، وكن لأمك التي تـــراك في عينيها صورة جان بيار" أعرف أنـــك تحبني لهذا جئتك، وأعرف

أنك كنت تنتظرني في قبرك لهذا وصلت إليك، وأعرف أنك الشاعر الذي لم يكتب لغير الذي يحب، فحفظت كل ما كتبت. أبي أنت الغريب في هذه البلاد التي ليست بلادك، وهذه الأرض التي دفنت بها وهي ليست لك، لكنها فرنسا التي غررت بك وأنت الشاعر الرقيق، فجعلتك تكتب شعرا في الليل وتطلق الرصاص في النهار على الناس الذين لم يأتوا إلى أميان لمحاربتك.. سامحني يا أبي إن اعترفت أمامك، أنا الذي أفلتت من البزة العسكرية وسكنت موسيقى فاغنر وتشايكوفسكي وموزار، أنني كرهت البلد الذي جعل جدي خائنا وعمي جوليان معطوب حرب، وأنت دفين المنفى البعيد.

أعترف أنكم جميعا خنتم مبادئ الثورة الفرنسية وجعلتم منا نابوليونات صغيرة، تحفر تاريخها بمخالب الدم. كل الذين قابلتهم وأنا آت إليك من قسنطينة إلى حيث تنام، لم يجرحوا قلبي أبدا، ولم يسألوني عنك وعن تاريخي، إنهم يستحقون الحياة فلماذا جئتم من بعيد لتنشروا بينهم الفجيعة، إنهم كالملائكة ليست لها مخالب. جئت إليك لأنك أبي الشاعر، أما أبي الذي يحاور الناس بالرصاص فأتركه لغيري ممن يحفلون بالموت.

أبي جئتك لأنك أحببتني كثيرا، ولكنك يا أبي كنت تحب فرنسا التي لم تمنحك الحق في الحياة، لأنك كما قال لي جدي في وصيته مجرد قبر إضافي لبقاء فرنسا، ولأن البشير الذي ظل وفيا لك كان خائنا مثل جدي وسينتهي بعيدا يلعنه تاريخ شعبه.

أبي ليتني أقوى على حمل عظامك لتدفن في

حديقـــة جدي، وترحل بعيدا عن هذه الأرض الغريبة عنك. إن لهذه الأرض أهلها فلماذا جئتها وأنت الذي أحببت الجســـر الحجري الذي داسته قدماك ومشت عليه أمي، أمي التي مات في شفتيها الكلام منذ سمعت بموتك. قتلتها البزة الرمادية.

أبـــي اعذرني إن رحلت عنك وليس معي غير باقة ورد حملتهـــا من أميان لعلهـــا تعطر ما تبقى منك. وداعا يا أبي.".

وقفت أتأمل عشرات القبور المهجورة، كل هؤلاء جان بيار، ليس لهم أهل أو أحبة، ماتوا بعيدا وسيغيبون في النسيان.

وعدت إلى حيث ماري التي احتضنتني أمام دهشـــة مخلـــوف الـــذي لم ير امـــرأة تحضن رجـــلا إلا في الأفلام، كما قال لي بعد أن غادرنا ســـوق أهراس في اتجـــاه عنابة التي وصلناها في التاســـعة ليلا، ونزلنا بفندق"الشرق" الذي يتوسط ساحة الثورة التي تكثر بها الحركة.

لم يفارقنا مخلوف، الذي قضى معنا الليلة يمشـــي على الشـــاطئ البحري، ويقترح علينا دخول المقاهي والمطاعم الشـــعبية. وكان في ذلك ما يسعد ماري التـــي لم تفـــوت فرصـــة التقاط صور في شـــوارع عنابة.

وعند الصباح، تجولنا في ســـوق شعبي وكان همي أن أحصل على أشـــرطة غنائية لبورقعة وبقار حدة وهـــو ما تم مع مخلوف الـــذي كان يفاوض التجار خول الأسعار، ويقول لهم "هؤلاء ضيوفنا" فكنا أحيانا نأخذ كل ما نرغب فيه دون أن ندفع شيئا.

وفي منتصف النهار، عدنا إلى قسنطيتة التي وصلناها في حدود الثالثة مساء، حيث لم يترك مخلوف مكانا إلا وأخذنا إليه، إذ أننا مررنا فوق كل الجسور، وكان يتباهى بالجسر المعلق ويقول "لا يوجد عندكم مثله في فرنسا".

فترد عليه ماري بخبث "تركته فرنسا لأنه ثقيل ولا يمكن نقله بالطائرة" فيرد مخلوف "لولا سواعد الجزائريين ما بناه موريس أو جاك.." وأقطع الحوار بينهما بأن أقترح زيارة حي القصبة ورحبة السوق، فينتهي بنا الليل في فندق لا يحضرني اسمه.

وفي السابعة صباحا، وجدنا مخلوف بطاقيته الأرجوانية وسيجارته التي يداعبها ذات اليمين وذات اليسار في انتظارنا، واتجهنا إلى المطار، وما أن وصلنا حتى أخرج مخلوف من صندوق سيارته قفة فيها إناء نحاسي به عسل محلي، وعرجون تمر تم انتقاؤه بعناية فائقة، قائلا "هذا عربون تعارف بيني وبينكم.. أما التاريخ فلن تغيره أيدينا لا في "إن إيكر" ولا سوق أهراس".

صافحني مخلوف وهو يشد على يدي، وهممت بأن أقبله لكنني شعرت بامتناع خفي، في حين قبلته ماري مرتين دون أن يحرك شيئا، واكتفى بابتسامة محتشمة، وهمس بعض المسافرين الذين يبدو أنهم لم يألفوا ذلك في شوارعهم.

عندما تقدمت إلى شباك شرطة الحدود قابلني الشرطي الذي ختم جوازي عند القدوم، وقال لي وهو يقلب أوراق الجواز "إما أن بلادنا لم تعجبك، أو أن المدام غير مرتاحة، أو أن الناس ضايقوك، أو

أنـــك أدركت أن البقاء مائـــة واثنين وثلاثين عاما رهان خاســـر.. فقررت العودة" فلـــم أجد من جواب سوى أن قلت له "قررت العودة لأنني ببساطة تركت ورائي جزءا مني هو عظام أبي..". ومشـــيت دون أن أسمع تعليقا على كلامي.

في الطائرة، قلت لماري إنني صرت أخف من ريشة عصفور في الريح. ألقيت أثقال التاريخ عن كاهلي. فليناموا في راحة. ونمت طول الرحلة..

حطـــت بنا الطائرة في مطـــار أورلي، فأيقظتني ماري:

- نحن في باريس..
- الآن فقط أغلقت أبواب الذاكرة..
- ماذا تعني؟
- أعني أن عائلة مالو ذات البزة الرمادية انتهت، وابتداء من اليوم تبدأ عائلة أنطوان عاشق السيمفونيات.

قبلتني ماري ومشينا طويلا في شوارع باريس التي لم يسبق أن احتضنتنا زوجين عاشقين.

من الشـــانزيليزي إلى برج إيفل كنت أبني وماري كثيـــرا من القصور ثـــم أهدمها وأعيـــد بناءها ثم أهدمهـــا وأبنيها إلى أن تصـــرخ في وجهي وتقول لا أريد قصورك وتكفيني ســـيمفونية رقصة البجع في مسرح سوق أهراس..

أنظر إليها بدهشة:

- إنـــك تعيدينني إلى حيث تركـــت الماضي.. إنما ســـأفعلها. ســـأعزف رقصة البجع في مسرح سوق أهراس، وتكونين معـــي حين أحيي الجمهور وفي مقدمته أبي..

تنظر إلي ماري بدهشة أيضا وتقبلني تحت زخات المطر الذي يبعث الحركة تحت برج إيفل الواقف منذ ستين عاما.

انتهى النهار..

.....

.....

في أميان، قالت لي جانيت "أمك لا تكف من النظر من الشباك، منتظرة عودتك". وجدتها نائمة. فرويت لجانيت كل الذي حدث، وعندما انتهيت كانت الساعة جاوزت منتصف الليل، ولم تنم ماري الغارقة في قراءة "الأحمر والأبيض" لـ"ستندال" لأنها ستجتاز امتحانا مهنيا بعد أسبوع، ولها الحق في اختيار كتاب ذي شهرة، وتقدم بشأنه ملخصا للجنة الممتحنة.

أحضرت لي جانيت كوب ليمون، وقالت لي "لا تعلق.. لأن الليمون يذكرك بأمور كثيرة".

وفي الصباح، أبصرت من الشباك، أمي وهي تتجه نحو الباب الذي يقود إلى الحديقة، فأسرعت نحوها، أقبلها وأحضنها، وفعلت مثلي وأكثر، ولم تقو على الكلام، إنما كانت ترسل كلامها في ضوء عيني، فأفهمه.

قلت لها وهي تتكئ على الجدار:

أمي.. أبي يسلم عليك، وهو لا يغادر الجسر الحجري. إنه يزوره كل صباح ليلقاك هناك. هو يحبك كثيرا، ويعلم أن الشعر الذي كتبه في كل منطقة أرسلوه إليها، هو لك وحدك، ولي أيضا لأنني منك ومنه. أمي لا تحزني كثيرا فأبي ينام في بيته هناك ولا يمكنه العودة إلينا، وأنا لم أعد ذلك الطفل

الـــذي لا يرى إلا بعيني جده وبقلب الذين أحبوه، إنه يرى بعقله وبقلبـــه، ويرى من يحب، ويفرح مع من يحب. أبي لن يعود، لأن فرنسا هي التي أرادت ذلك، أما أنا وأنت فلن يأخذوا منا الذي نريد وهي حياتنا. فلا تجزعي أمي إن عـــدت وحدي، لأن أبي لن يعود، وأنـــت الحزينة منذ أربعة عشـــر عاما، لا معنى لهذا الوشاح الأسود الذي يغطي شعر رأسك، إنه يذكرنا بالموت، ونحن نريد أن نفرح. اتركي الحزن يرحل بعيدا، وافرحي معنا ولو بعينيك.. افرحي أمي، فإن أبي يعرف معنى الفرح. افرحي ولا تقلقي أبدا..

كانـــت أمي تبكي، وليس لها غيـــر الدمعة الحارقة. وحيـــن وقفت ألقت الوشـــاح الأســـود علـــى الأرض وعادت إلى غرفتها وكأنها تخلصت من جبل يســـكن أضلاعها.

وداعا للبزة الرمادية.

6

عشت حياة عادية، بين الكونسرفاتوار والبيت وحانة بايـــرون التي لم يتغير صاحبها، ولا نظراته المريبة، وكأنه رجل مخابرات خارج الخدمة.

أنجبـــت في العـــام الثالث من زواجي بنتا أســـمتها ماري زانا، فاستغربت الاسم، لكنها قالت لي وهي تشد على يدي "حتى لا ننســـى المكان الذي تنام فيه عظام أبيك". أحببتها أكثر.

زانا ملأت بيتنا ســـعادة، فكانت أمي، على حالها من الاكتئـــاب، تداعبهـــا وتقبلها وتحملهـــا إلى حديقة البيت.

وبعد عامين ولد لي طفل أسميته إيمي، لأنني أحب هذا الاسم، ففيه كثير من دلالات الحب.

في مطلع الثمانينيات لم أكن أعرف معنى السياسة والأحزاب، ولم أكن أهتـــم بالانتخابات أو ما يرمز إلـــى أي فعلي سياســـي، لكن عددا مـــن أصدقائي في الكونسرفاتوار أقنعوني بأن أمارس حقي في النضال ضمن الحزب الاشتراكي، ويومها كنت مشدودا إلى

شـــعار حملة فرانســـوا ميتران في انتحابات الرئاسة الفرنســـية وهو "القوة الهادئة". أعجبني كثيرا هذا الشـــعار، بل إنني انجذبت بســـرعة إلى هذا الحزب، ولكن قطيعة حدثت بيني وبين أصدقائي في الحزب، فانســـحبت منه في بداية العـــام 1993 بعد أن صارت مواقـــف الحزب من الأوضاع السياســـية والأمنية في الجزائر مناوئة لاســـتقلال هذا البلد، وبدا لي وكأن هناك تشفيا لدى قدامى الحزب الاشتراكي ومحاربي فرنســـا في الجزائر، يشـــاركهم فيه متطرفون من اليمين الحامل لنوستالجيا استعمارية.

انســـحبت، وقررت أن أوقف جهدي على الموسيقى وتربية ولدي زانا وإيمي، ورعاية عائلتي الصغيرة.

في صيف 1993 طرقت بابي جانيت في الثانية صباحا لتخبرني أن أمي تعاني حالة إجهاد، وأنها تجد صعوبة في التنفس. أسرعت نحوها، كانت عيناها شبه مغلقتين، تنظر إلي بصعوبـــة كبيرة، وعلى صدرها صورة لها مع أبي وأنا بينهما، وصليب كانت تشد عليها بقبضة يدها اليمنى، وتتنهد بصـــورة غير عادية. نظرت إلى جانيت، فأومأت برأسها أنها لحظة الموت.

كانت ماري واقفة قرب الباب، وخلف النافذة لمحت إيمي وزانا وهما في حالة ذهول.

توقـــف قلبها. لم يكـــن الوقت كافيـــا لنقلها إلى المستشفى.

قالت لي جانيت:

- كانت سيدة عظيمة في حياتها وموتها.

وارتمت ماري علي باكية، بينما اختفت زانا وإيمي. جلست إلى جانبها، أبكيها:

"أمي.. حيـــن صرت قادرا على الـــكلام والتعبير عن حبي لك، توقف لســـانك عن الكلام. فكنت أكلمك بعيني، وتفهمين قصدي، وتبوحين لي بما في قلبك فأفهم ما تقولين. تموتين اليوم فلا تجدين جان بيار الذي أكلته الحرب بعيـــدا، ولا أوليفيي جدي الذي تكرهينه في الليل وتحبينه في النهار.

أمي أنت الوردة التي كنت أشعر بعطرها وذبولها، وكنت أعرف أنها ستموت في لحظة داخل حديقتها. ســـتظلين في ذاكر هذا البيت الذي سيفقد صمتك ومشـــيتك الهادئة وجلستك في عتبة باب الحديقة، أنـــت التي لم ترحمك فرنســـا حين ســـرقت منك الرجـــل الذي أحبك عند الجســـر الحجري، وبادلته الحب طويلا إلى أن رحل. وداعا أمي.

شعرنا بفراغ رهيب بعد رحيل أمي. ولم يكن سهلا علينا تجاوز محنة، لـــم نألفها منذ رحيل جدي قبل عشرين عاما.

"إنها مع جـــدي في الجنة" هكـــذا كانت تقول لي ابنتي زانا عندما تشعر بحزني.

أغلقت أبواب الاهتمام بغيري، ولم أعد أفكر في غير ما يدور داخل بيتي أو كتابة مقطوعات موســـيقية. ولا أكتـــم أنني أخذت كثيرا من روح الموســـيقى الشـــعبية الجزائرية التي كنت أســـتمع إليها بدون توقف منذ رحلتي إلى سوق أهراس في العام 1973.

في ربيع 1998 وصلتني رســـالة من البشير الكانكي، الذي لم أتواصل معه ســـوى مرتين، عند عودتي من سوق أهراس، وعندما وقعت أحداث أكتوبر 1988 في الجزائر، حيث ســـألته إن كانت أخبار عائلته ســـارة

فآثـــر الصمت، إذ اعتقدت يومها أن انتفاضة أكتوبر عمت كل مدن الجزائر.

قرأت رسالة البشير، ونصها كما يلي:

"عزيزي أنطوان،

ما أقوله لـــك في هذه الرســـالة مختلف تماما عما ســـمعته مني قبل ثلاثة وعشـــرين عامـــا. وأنا فوق الثمانين، هزيلا تسكنني الأمراض، لا أهل ولا أقارب، كمنبوذ في بيت العجزة.

هذه رســـالة اعتراف. رسالة لا تحمل شيئا من عين الزانة ولا جان بيار. إننـــي على فراش الموت عاجز عـــن الكلام. ما جـــدوى الكلام حين يســـتيقظ فيك طائـــر الندم، وتطلـــع من دمك أشـــجار اليأس. أنا البشـــير الذي أخذته العزة بالإثم حين اعتقد أن الله في السماء وفرنسا في الأرض، وفعل بإخوانه وأقاربه ما لم يفعله الفرنسيون أنفسهم.

كنت يا أنطوان وحشا لا يعرف غير الأذى، وشخصا ليس له من الآدمية غير اســـمه. أنا البشـــير الحقير، النتن، الســـيء، المجـــرم، التافه.. أنـــا كل ما يرمز للخيانة. أنت لا تعرف معنى الخيانة يا أنطوان. ربما فهمت من جدك شيئا من الخيانة، لكنه أخفاها بتلك النياشين. إنها قاسية على القلب حين نمارسها.

لم أكن أفهـــم معنى الخيانة رغـــم امتداد العمر، وكنت دائما أرى فرنســـا في الأرض مثلما أرى الله في السماء.

لكن اللحظة التي عرفت فيها الخيانة كانت عندما قصدت مكـــة للحج، وهناك رأيـــت جمعا من حجيج الجزائر وهم يقفون في جبل الرحمة بعرفات يعلوهم

العلم الذي كنت أحتفظ بواحد مثله في بيتي، وعندما أريد البكاء أخرجه من صندوق فاطمة.

تقدمت منهم متسللا كلص، فكانوا يرفعون أيديهم متضرعين إلى الله أن يحمي الجزائر من كيد الإرهابيين والقتلة، كانوا يبكون ويبكون، بل إن بعضهم كان يرفع صوته عاليا وكأن الله لن يسمعه لو ناداه بصوت خافت.

كانت النساء أيضا تتضرع إلى الله أن يحمي الجزائر وأبناءها. ولم أتمالك نفسي حين رأيت اثنين من حجيج سوق أهراس مع هؤلاء الحجاج، فأجهشت بالبكاء وأنا أقول "سامحني يا رب.. سامحني.. كنت واحدا من هؤلاء الإرهابيين.. أحرقت البيوت ونفيت الرجال وأدخلت الأبرياء السجن.. يا رب البشير الكانكي كان أسوأ من إرهابيي الرايس وبن طلحة. هم أصدروا فتاوى الموت باسم الله وقتلوا باسم الدين.

وأنا مارست الخيانة حتى العظم. اغفر لي يا رب، واحم الجزائر. نعم يا أنطوان شعرت بعد الثمانين أن مسعود السطائفي هو أشرف من يجلس في مقهى فيرميني. سامحني يا أنطوان إن قلت لك هذا الكلام، لأن المسافة بيني وبين القبر مقدار شبر واحد، وليس لي وقت للتوبة.

ليتني لم أخن الأرض التي تحتضن اليوم عظام أبي وأمي وابني سليمان.

ليتني لم أخن لم أخن لم أخن.. ليتهم قتلوني في عين الزانة فلا أشعر اليوم بالندم، لأن الشعور بالخيانة أسوأ من تجرع السم.

سأموت بعيدا عن أهلي وتربة عائلتي وأقاربي، سأموت وأدفن في مقبرة لن يعرفني فيها أحد، ولن يزور قبري في مواسم العيد والمولد النبوي أحد، حتى فاطمة ماتت، وميلود تزوج وانتقل مع زوجته إلى شامبيري، وأنا وحدي أقاوم لحظة الخوف الكبيرة. لحظة الموت. إنني أموت مرات في اليوم، أموت في الغربة، وأموت في عيون الناس خائنا، والخيانة عند أهلي أسوأ من الكفر. سوق أهراس يا أنطوان أنجبت من الرجال والأبطال ما يجعلني أخجل بتاريخي الوسخ من ذكر أسمائهم الشريفة. لا تأبه بحالي يا أنطوان، أنا فعلت هذا، وأستحق جزائي، سأموت كالجمل الأجرب في هذي البلاد التي منحتني الأمان يومين والمذلة كل العمر. أنت فرنسي، لك أن تفرح في أرضك وتعزف الموسيقى التي تحب وتزور قبر أبيك في سوق أهراس، وأنا ليس لي إلا العار.

سأموت وحدي كالكلب الذي رماه أصحابه في الأزقة الموبوءة.

سأموت وليس معي غير مصحف قرآن، وصورة لي مع أبنائي أجد فيها عزائي، وشريط الشيخ بورقعة يمسح قليلا من حزني. وداعا".

في نهاية العمر، يشعر الانسان بكثير من الندم وقليل من السعادة، وحين ينظر إلى بياض شعره يفهم لماذا تغيب الشمس كل مساء.

هكذا كان جدي، ومثله البشير الكانكي.

علمت، بعد أسابيع من تلقي الرسالة، من مركز العجزة بفرميني أن البشير توفي وحيدا ولم يحضر

جنازته سوى قليل من الناس وبعض أفراد عائلته.

أعرف أن مسعود السطايفي لن يكون بين المعزين في وفاته، فهو من طينة أخرى مختلفة، عاشت لتغيظ أمثال الكانكي، وتشعرهم بالنذالة والخيانة.

لا يمكنني أن أخفي مشاعري أمام ماري، إذ أنني قلت لها في اليوم الذي نالت فيه فرنسا كأس العالم:

- زيدان هو الذي توج فرنسا بالكأس..
- تقصد كونه جزائري الأصل..
- نعم.
- أنت لم تغفر لفرنسا ذنبها.
- ذنوبها كثيرة.. ولا تكفي بحار الدنيا لتمحو دماء عشرات السنين.
- لا تكن قاسيا على التاريخ..
- بل أنا أقسو على الذين صنعوا تاريخا من الدم ونسجوا ذاكرة من الكذب.

في هذه اللحظة تدخل زانا التي اختارت دراسة الطب وإيمي الذي فضل التخصص في الكومبيوتر، فأحول مجرى الحديث إلى انتقاد رونالدو الذي بدا في الملعب وكأنه قضى ليلته مع الحشاشين.

لم أكن أرغب في أن يهتم أبنائي بالتاريخ الدامي لفرنسا، لأنهم يتعبون مثلي كثيرا.

شيء لم أفهمه يخص زين الدين زيدان الذي دخل التاريخ بثلاث ضربات رأسية، الأولى عندما سجل هدفه الأول في مرمى البرازيل وشعرت فرنسا كلها بالفخر، والثانية أيضا برأسه في شباك البرازيل واهتز معه الفرنسيون والعرب شعورا بالفخر والكبرياء، والثالثة عندما نطح برأسه لاعبا إيطاليا استفزه بسب

أعز النـــاس إلى قلبه، وهذه لم تخرجه التاريخ كما يقول المدافعون عن القيـــم الأولمبية، إنما دخل بها قلوب العرب أولا لأنهم يرون في ذلك أفضل طريقة للدفاع عن الشـــرف. ربما نحن فينـــا بعض البرودة فنلجـــأ إلى القانون لإنصافنا. الشـــرف عند زيدان لا يدخل أروقة القضاء.

ومثل كل الناس عشـــت التفجيـــرات التي ضربت نيويـــورك في 11 ســـبتمبر 2001، ويومها كنت أعد لندوة علميـــة مع عازف البيانو الشـــهير إيف برين الحائـــز في 1997 علـــى جائزة فلوران شـــميت التي تقدمها أكاديمية الفنون الجميلة بباريس.

كنت أتفرج على برجي التجارة العالمي بنيويورك وهما يتهاويـــان، غير مصدق، وكأننـــي أتابع فيلما سينمائيا، وكانت المرة الأولى التي سمعت فيها اسم أســـامة بن لادن والقاعدة، فأنا لا أهتم كثيرا بأخبار الحـــروب والنزاعـــات التي يشـــهدها العالم، وخاصة الشرق الأوسط. كلها عين الزانة.

قالت لي جولييت، مساعدة مدير الكونسرفاتوار:

- ماذا لو قلبنا مشهد ما حدث في نيويورك وكانت باريـــس هي الهدف؟ لن يجد الإرهابيون أفضل من برج إيفل.. وهم على بعد ساعة منا.

فهمت أنها تقصد الجزائـــر التي ينتمي إليها أغلب الذين نفـــذوا تفجيرات في باريـــس، وانتظرت ردي لأنها تعـــرف مدى تعاطفي مـــع القضايا التي تخص الجزائر.

لم أقل شـــيئا وادعيت أنني كنـــت أدقق في قائمة المدعوين إلى ندوة عازف البيانو برين. ولكن ميشال

دانوي الأستاذ بالكونسرفاتوار دخل على الخط:

- الإرهابيـــون الذين ضربوا باريـــس، أقصد جماعة خالـــد قلقال، يختارون أهدافـــا تحت الأرض، لهذا وضعـــوا متفجراتهـــم في أنفـــاق الميتـــرو.. أما الإرهابيـــون الذين ضربوا أمريكا فهم من عشـــاق السماء.. ويعتقدون أن مفاتيح الجنة بأيديهم.

قالت جولييت وكأنها تريد أن تنهي النقاش:

- ما أتمناه أن تظل باريس بعيدة عن صراعات أمريكا مـــع جيوش الظل التي أنشـــأتها في أفغانســـتان.. الأمريـــكان يريدون أن يحكمـــوا العالم بمفردهم، فليأكلوا غلة زرعوها.

- بقي أمامنا نصف ساعة لبدء الندوة، فلنترك أمريكا تضمد جراحها، وتحاسب إن شاءت حكامها صقورا وحمائم، والأيام ستكشف الفاعل..

أغلقـــت باب الحديـــث، واتجهت إلى الباب الرئيســـي لاســـتقبال السيد إيف برين، الرجل الوسيم، والعازف ذو الأنامل الساحرة.

كان العالم أشبه بفرن تنبعث منه حرارة لا تقاوم. وكنت مثـــل كثير من الخلق مرغمـــا على متابعة مـــا يجري حولي، وما لا أنســـاه هو مشـــاهد اغتيال رئيس العراق السابق صدام حسين. كان قتلا شنيعا، أحسســـت لحظتها أن ما كان يختزنه العراقيون من حقد على هـــذا الديكتاتور تم في يـــوم مقدس لدى المسلمين، إنما لم أفهم ابتسامة الرجل لحظة الشنق، حتى الجلادون يبتســـمون ساعة الموت. لم أبد أسفا كبيـــرا عليه، ولكن الذين حكمـــوا العراق بعد صدام ليسوا أقل رحمة منه.

الأمريكان لا يعنيني أمرهم، فهم يريدون النفط وليأكل العراقيون بعضهم بعضا. وأقرأ أخبار طالبان وخطف الأجانب في أفغانستان، واليمن أيضا، ومقتل رئيس حكومة لبنان رفيق الحريري والحرب بين إسرائيل وحزب الله في صيف 2006 ، وكنت أحيانا أنشغل بالمفاعل النووي الإيراني ومأساة دارفور ومرض فيدال كاسترو وانتخاب نيكولا ساركوزي الذي لم أصوت له لأنه وصف جزءا من أبناء المستعمرات القديمة المقيمين بفرنسا بالأوباش والحثالات، وهو واحد منهم، مثلما أهتم بأخبار مهرجان "كان" السينمائي وكرة القدم التي أعشقها كثيرا، إنما تبقى متابعتي لأخبار الموسيقى الكلاسيكية أهم ما أقوم به خاصة بعد إحالتي على التقاعد.

في العام الذي استرحت فيه من متاعب العمل في الكونسرفاتوار، كنت أتمزق كورقة في أيدي السياسيين، إذ أن القانون الذي أصدروه في 23 فبراير 2005 يدعو إلى التعامل مع الاستعمار كظاهرة إيجابية وليس من جانب الدم والمآسي فقط، فتذكرت ما قاله لي جدي في وصيته " في الجزائر اقتنعت أن علينا أن نحفر كثيرا من القبور لنظل هناك إلى الأبد". هذه هي فرنسا التي ندعو العالم إلى تمجيدها.

صرت أكره السياسيين الذين يديرون التاريخ من مكاتبهم الفارهة، ولم يشعروا يوما بآلامنا نحن الذين فقدنا أحبتنا ولم نصفق لليربوع الأزرق والأحمر والأبيض.. تذكرت ما قاله مخلوف قبل أكثر من ثلاثين عاما "مشكلتنا أن لدينا كثيرا من التاريخ

وقليلا من الذاكرة." ويبدو أننا في فرنسا نملك كثيرا من الزيف وقليلا من الحقيقة.

أحيانا أكاد أخرج إلى شوارع أميان وباريس ومارسيليا وأصرخ "اتركوا الجزائر وأهلها. هل أسعدتكم سنوات الدم الذي سال فوق دم الآلاف من الذين ثاروا ضدنا وأخرجونا؟ وهل أحزنكم حين تصالحوا وأوقفوا جهدهم لحماية الأجيال القادمة. ما أصعب أن يصب لعنته التاريخ. فلا تمجدوا الخطيئة".

كنت كلما ابتعدت عن التاريخ ازددت قربا منه.. بعض الناس يرون في التقاعد مقدمة لموت بطيء، أما أنا فقد استعدت فيه شيئا من شبابي، وعرضت على ماري التي كانت تتهيأ هي الأخرى إلى التقاعد، القيام برحلة إلى صحراء الجزائر.

ليس هناك ما يعيقنا عن فعل ذلك، فزانا التحقت بعيادة متخصصة في جراحة الأعصاب بستراسبورغ، بينما اختار إيمي الهجرة إلى كندا للعمل في مؤسسة خاصة بالبرمجيات.

في بدايات شتاء العام 2009 وصلنا مطار جانت بمنطقة التاسيلي القريبة شرقا من حدود الجزائر مع ليبيا، بقصد قضاء أعياد رأس السنة بأسكرام حيث أجمل غروب للشمس كما تقول وكالات السياحة والأسفار في مواقعها بشبكة الأنترنيت.

مطار بلون الرمل. بعض العاملين به من التوارق بلباسهم الأزرق الفاتح والأصفر الفاقع وقليل منهم من يكتفي باللثام، أما بقية الموظفين فإنهم يرتدون ألبسة مدنية، كالشرطة والجمارك.

تمنيت في تلك اللحظة لو قابلت شرطي قسنطينة الذي داعبني بقوله أتمنى ألا يدوم شهر عسلك مائة واثنين وثلاثين عاما. ولا أعتقد أنني أفعل ذلك في هذه الصحراء.

سألتني ماري وهي ترى مطارا في قلب الصحراء، والرمال تحيط به:

- أشعر أنني بلغت نهاية العالم..
- شعب هذه المنطقة هو بداية العالم.. ومعنى هذا أننا نحن نهاية العالم.
- في هذه الأرض لا يملك الانسان إلا أن يكون فيلسوفا..
- أنصحك بأن تدوني هذه الرحلة، وتصدريها في كتاب، فلغتك جميلة..
- تعلمتها منك..

دليلنا في الرحلة السياحية اسمه آمود، بلباسه الترقي ولثامه الذي لا يغطي كل الوجه إلا العينين كما رأيت في الرحلة، سألته:

- مطار آمود.. وأنت آمود..

فأجابني ضاحكا:

- ثلاثة أرباع سكان جانت يحملون هذا الاسم. ويعتزون كثيرا به لأن الذي حمله قبلنا قاوم مدة أربعين عاما استعمارين فرنسا في الجزائر وإيطاليا في ليبيا، ولم يقبض عليه ولا يعرف له قبر.. إنه مثل حنبعل.
- من حقك أن تعتز، ومن حقنا أن نغلق ذاكرتنا بمفاتيح صدئة. صحيح هناك تاريخ أبيض وآخر أسود.

قطع حوارنا أحد السياح، يبدو من بنيته الجسمية أنه من شمال أوروبا، كان ينصت إلينا:

- من حقك أيها التارقي أن تتباهى بما فعل أجدادك، لأن الذين رموا نابليون في جزيرة لا يزورها الجن يقتلون رموزهم في التاريخ..

قلت له، بعد أن أدركت نيته في استفزازي:

- أنت دنماركي أم نمساوي؟

رد عليه بانفعال:

- أنا جرماني.. ألا ترى قطرات الدم الألماني تغزو وجهي..

- وهل لك أن تتباهى بهتلر..

- يكفي أنني أحمل جزءا من اسمه.. ثم إنه لم يلق مصير نابليون.. إنه مثل هذا التارقي الذي قاومكم أربعين عاما لا يعرف له قبر وعشيقته أيضا إيفا براون.. أما أنا فاسمي أدولف هوسمان. وعليك أن تحفظ هذا الاسم جيدا..

ابتسم آمود، ولم أجد ما أقوله لهذا الألماني المتعجرف، شبيه البيلدوزر.

انطلقنا نحو جانت في سيارات رباعية الدفع، وكان عددنا يزيد عن ثلاثين سائحا فرنسيا وثلاثة ألمان وأمريكيين.

لم نقصد فندقا من خمسة نجوم. واكتفينا من جانت بأن شاهدنا جزءا منها، ونحن نسير بمحاذاة واديها الجاف تماما. وبعد حوالي أربعين دقيقة وصلنا إلى ما يشبه الواحة حيث نصبت ثلاث خيمات، وتم توزيعنا داخلها.

ارتحنا قليلا، وتناولنا أكوابا من الشاي الذي يحسن

التوارق إعداده. وفي الخامسة زوالا، جاء آمود ومعه عدد من الجمال، وخيرنا بين ركوبها أو المشـــي، أو استعمال السيارات في زيارة استكشاف لجانت.

قال لي آمود لما رآني ألح في الســؤال عن الســبب الذي دعا وكالته الســياحية تفكــر في الخيمة بدل الفندق:

- لو أقمتم في فنادق كأنكم لم تغادروا أوروبا.. أما الخيمة فهي جزء من هذه الصحراء..

ســألته ماري وهي تلتقط صورا للجمال المتحركة في جهة الكثبان التي تعلوها نتوءات صخرية حادة:

- ألا توجد عقارب وثعابين؟

- توجد.. لكنها في إضراب.

وضحك آمود، قبل أن يضيف بصوته المبحوح:

- تعرفين يا مدام.. أن ملك بلجيكا بودوين أقام قبل أكثر من عشرين عاما أياما بجانت، وكان يطلب من حراســه المبيت معه في العراء.. وعندما سئل عن السبب أجاب إنه يقيم في فندق بآلاف النجوم.. ألا تفضلين يا مدام المبيت في فندق كهذا؟

ابتســمت ماري والتقطت صورة لآمــود وهو يعدل لثامه.

أحببت آمود، ذلك الشاب الهادئ، الذي يختزل كل الصحراء وروح التوارق، هذا الشعب الأسطوري الذي لا أفهم لماذا لم تفهمه فرنسا..

قضينا أسبوعا في جانت، وأذكر أن آمود كان يشرح لنا تلك الرســوم الصخرية بكثير من الحب، وذهب في إحــدى المرات إلى القول عندما شــعر أن بعض السياح لم تقنعهم شروحه:

- ليس أمامكم إلا أن تقرأوا ما كتب الباحث جورج كريستيا، السويدي الروماني في كتابه "الصحراء". لقد وصل إلى أن التوارق هم من علم العالم الرقص والمسرح..

كان آمود وديعا، خجولا، لا يتكلم إلا إذا رأى حاجة في ذلك، أو ردا على سؤال.

وفي فجر اليوم الثامن اتجهت بنا السيارات من التاسيلي إلى الأهقار، والمسافة لا تقل عن سبعمائة كيلومتر. قال لي آمود ضاحكا كعادته:

- كالمسافة بين الجزائر ومارسيليا.. الفرق هو الماء، والرمل تلمسه على الشاطئ.

يعجبني كلامه، وذكاؤه، وفهمه للسؤال ولو كان مبطنا.

كانت الطريق مفتوحة على الأفق، وأحيانا تواجهنا مرتفعات وسلاسل جبلية، صارت جزءا من حياة التوارق، بل كل حياتهم.

وصلنا تامنراست في حدود منتصف الليل، وقضينا ليلة في فندق "طاهات" المتواضع ذي الخدمات التي يشرف عليها جزائريون قدموا من الشمال، مثلما أفادني بذلك آمود:

- التوارق يهتمون بأمور أخرى، فبقدر معرفتهم بالصحراء وأسرارها، لا يعرفون سر الطبخ لدى أهل الشمال.

وفي الصباح، كانت وجهتنا منطقة أسكرام التي لا تبعد كثيرا عن تامنراست، وما أن لاحت تلك القمة العجيبة حتى رأيت السائح الألماني أدولف هوسمان يصرخ ويقول:

- يـــا إلهي.. هذا ما رأيته في الحلـــم.. يا إلهي إنها نبـــوءة أمي التي قالت لي ســـتذهب إلى الصحراء وتكـــون في قامة جبل لا لون له.. وســـتدخل دير النبـــي الأخير. يا إلهي إنه الجبل الذي رأيت.. إنه هو..

كنا ننظر إلى هوسمان مندهشين وآمود ينظر إلينا وكأنه لا يبدي أي غرابة فيما يرى ويســـمع. التفت إلي وهمس في أذني:

- لقد فعلها في العام الماضي.. وسيفعلها في الأعوام القادمة. وستســـمعه يتحدث عن الأب شـــارل دي فوكو كما لو أنه النبي الأخير في الأرض.

- .....

عندما وصلنا المكان، كان فضاء الأسكرام يعج بالسياح القادمين من كل العالم. قالت لي ماري، وهي تلتقط مزيد الصور كعادتها:

- أنظر.. اليابانيون أكثر عددا منا نحن الأوروبيين القريبين من الجزائر.

فقاطعها آمود:

- أعتقد أنهم صينيون.. فهم أشـــبه بالجراد الأصفر الذي يغزو العالم.. لكنهم يتقنون عملهم جيدا..

تلاشـــى الزمن في أســـكرام، وصار الســـياح يتنقلون فرادى في الأماكن التي تجتذبهم، يمارســـون حبهم للحياة وللحرية وللطبيعة المتفردة.

كان الجـــو باردا، فجلب آمود لكل ســـائح بطانية، ونصحنا بالتزام الخيم في الليل، لأن طقوس التوارق تظهر ليلا في الرقصة الأسطورية، وصراعات الخير والشـــر والبحث عن السعادة والسلم. تلك هي ساعة

الحقيقة فـــي الصحراء، حين يفهـــم الذين يصنعون الحـــروب، أن فـــي تلك البلاد البعيدة شـــعوبا تحب الحياة. لا تؤمن إلا بالصبر.

لم أنس تلك الليلة التي رقصت فيها مع ماري حتى الساعات الأخيرة من الليل.

أيـــن أنت يا صاحب حانة بايرون لتعرف كم كنت بعيدا عن فهم الحياة. تعال واقض ليلة معنا وستفهم أن بايرون لو زار أسكرام لكتب من الشعر الجميل ما ينسيه نساء الأرض.

الليلة الأولى لا تنسى..

الليلة الثانية لا تنسى..

الليلة الثالثة لا تنسى أيضا..

الليلة الرابعة نسيت فيها الليالي السابقة حين ولجت دير الأب شـــارل دي فوكو الذي كان يحدثني عنه جدي، ولم أكن أفهم حينها لماذا يتعلق به قدر تعلقه بفرنسا، ولماذا يصرخ هذا الألماني كالمجنون عندما يرى المنطقة التي دفن فيها.

كنت أشبه بمخمور، أو كمن ولدته أمه وألقت به في هذا الدير البعيد.

قرأ آمـــود ما يتقاطع بين عيني وقلبي، فتقدم مني وسألني:

- أنت عازف بيانو وأمر طبيعي أن تتداخل أحاسيس الفـــن بالإيمان.. الأب دي فوكو يجعلونه قديســـا في بلدان كثيرة، ولا يرى فيه الجزائريون سوى ذلك الجاسوس الذي خدم فرنسا الاستعمارية.

أمســـكت بيد آمود إلى خارج الديـــر دون أن أنبس بكلمة واحدة، ولـــم أر منه أي رد فعل. وما أن بلغنا

عتبة الباب الخارجي، صرخت في وجهه:
- لنترك فرنسا خارج الدير..
- هذا تاريخ لن أغيره لا أنا ولا أنت ولا من هم داخل الدير.. لأننا لم نصنعه.
- أنت لا تعـــرف ماذا أخبئ في هذا الصدر يا آمود.. إنني ربما أعرف ما لا تعرف، لأنني عشت شيئا من الـــذي لو عرفت لعدت إلى جانت ونمت وحدك في الخيمة..
- ســـيدي.. لو جعلت من التاريـــخ عملة في علاقتي بالســـياح لكنت الآن أمد يدي في شوارع جانت أو إليزي أو وهران.. ثم إنك لم تســـمع مني كلمة سمعتها من رجل تتبع سيرة الأب دي فوكو كررها مرات في جلسة داخل الدير قبل عشر سنوات حين كان الســـياح يخشون المجيء خوفا من الجماعات الارهابية التي تهـــدد كل من يأتي إلى الصحراء. قال الرجل إن فوكو يعترف بأن عودته إلى الدين ســـببها ما يراه من تمسك للمسلمين بدينهم، فهو يقـــول " لقد كنت أرى تلك البرانس أو العباءات الواسعة تنحني بروعة، في حركة واحدة، بحسب الركعات المفروضة، وكنت أســـمع أصداء صلاة تردّد بنبرة أعلى ابتهال "الله أكبر!"، فكان يجتاحني قلقٌ شديد هو مزيج من الخزي والغضب. ووددت أن أقـــول لهم إني أيضًا أؤمـــن، وأعرف أن أصلّي وأن أسجد" هذا ما قال الأب شارل دي فوكو.. أما ما فعله الجندي شارل دي فوكو لمصلحة فرنسا فنتركه للتاريخ.
- فهمتك..

في هذه اللحظة مر بنا هوسمان وهو يتصبب عرقا، ويحمل على ظهره صليبا كبيرا من الخشب ويطوف حول الدير ويقول "إنها النبوءة.. أمي هل تسمعين صوتي في فرانكفورت.. أنا في باحة النبي.. سأبني ما يخلده، وسأنتقم من قاتليه.. سأنتقم".

كأنه مجنون لكن ينتقم ممن؟ وغاب كلام هوسمان في الأسكرام الساحر.

قال آمود:

- عندما تكون جيوبنا منتفخة يمكننا شق طريق في البحر.. وهو شأن هذا الري الألماني الذي لم يجد وجهة لصرف ماله.

في هذه الأثناء ولحقت بنا ماري التي قالت كعادتها عندما لا تسأل عن شيء:

- رغم أنني عديمة الإيمان لكنني أكبرت في الأب دي فوكو صبره ومقاومته.. لكن لماذا قتلوه؟.

رد عليها آمود بثقة عالية:

- اسألي مدني أق جيبو الذي قتله قبل مائة عام؟

وكأنها لم تعر الجواب اهتماما، ادعت ماري أنها نسيت شيئا في داخل الدير.

تلك طبائع النساء عندما ينهزمن.

عرفت مصطفى أيام الدراسة، ومخلوف عندما زرت عين الزانة، وآمود في رحلتي هذه.. كثير علي أن أعرف أكثر من هؤلاء. هذا الشعب يستحق الحياة.

.....

عدت إلى أميان وكرست وقتي للبحث، والتأليف، وقيادة الأجواق السيمفونية بفرنسا وبعض مدن أوروبا وحتى جوق مونتريال.

كان العالم يتغير ونحن نقاوم للحفاظ على تلك النوتة الموسيقية التي صانها موزار وبيتهوفن.
كنت أغلق الأبواب والنوافذ أمام أخبار السياسة والحرب والانقلابات.

حتى حديث الناس عن ذلك النيزك القادم من بعيد، والخوف من أن يرتطم بالأرض لم يحرك في نفسي ذلك الشعور الذي جعل ماري روز تنام مفتحة العينين إلى جانب جانيت التي أصابها شلل نصفي جعلها تقضي ما تبقى من أيام عمرها على كرسي متحرك، تتم برمجة حركته آليا.

زانا صارت أما لبنتين بعد زواجها من طبيب مغربي، قالت إنه لا يكف عن الصلاة ليلا. وإيمي تزوج من بطلة كند في لعبة الشطرنج ولا يرغبان في إنجاب أطفال، ربما يكتفيان بالبيادق الخشبية. وأما أعظم ما قمت به خلال عشرين عاما من الصمت وعشرين أخرى من التفكير هي أنني ألفت سيمفونية "زانا واعترافات الروح" مزجت فيها كثيرا من موسيقى الموت تتقاطع معها إيقاعات بورقعة وبقار حدة وأغنية حيزية، وتم عزفها في أوبرا أميان في حفل كرمتني فيه المدينة التي منحته كل الحب، عندما صدرت لي موسوعة عن أعظم عازفي البيانو في فرنسا في العام 2030.

أسعدني كثيرا أن صحافة أميان أثنت على السيمفونية التي رفعتها إلى أرواح الذين أكلهم النسيان.

حين ماتت جانيت، شعرت أن بيت جدي صار موحشا كمقبرة، وأن علي أن أرحل مع ماري روز إلى بيت آخر لننسى قليلا، ونحتفظ بشيء من السعادة.

اقترحت علـــى ماري العودة إلى أســـكرام، فرحبت كثيرا، وأعدت لذلك العـــدة، وكانت في كل مرة تسألني "هل سيكون معنا آمود؟" فأجيبها "ومن يدري؟ إن كان حيا سنعثر عليه.".

ولكن قبل أســـبوع واحد من سفرنا إلى أسكرام في طائرة اســـتأجرتها وكالة السياحة التي نتعامل معها تبيـــن أن ماري مصابة بهبوط حـــاد في الضغط، مما استدعى نقلها إلى المستشـــفى، ورغم تحسن حالتها الصحية إلا أنها فضلت الذهاب إلى ستراسبورغ لقضاء أيام مع زانا، وطلبت مني أن أذهب إلى أسكرام.

وأنا اليوم في أسكرام.

ما لـــم أفهمه عنـــد وصولي فندق أســـكرام بالاس هو أنني كنت أســـمع في البهو تكرار اسم هوسمان، وعندما ســـألت الدليل، قال لي إنه ألماني ظل يتردد على أســـكرام مدة تفوق العشرين عاما إلى أن أنهاها ببنـــاء هذا الفندق الذي لا مثيل له في كل الصحراء، هندســـة ومعمارا وخدمات. قلت في نفسي أليس هو ذلك الســـائح الذي يحمل صليبا على ظهره ويقول إنهـــا النبوءة وينادي أمه وينهـــي صراخه بالانتقام. وأنا أســـتفز ذاكرتي أستجلي ملامحه، وإذ به ينزل من الســـلم المحاذي يمينا لبهو الاســـتقبال. إنه هو، هوسمان الألماني، لم يتغير إلا قليلا.

تقدمت منه، نظر إلي، وبدا لي وكأنه نسي ملامحي، فحاولـــت أن أذكره ببعـــض المواقف في جانت وفي أســـكرام، نابليون وهتلر، لكنه فاجأنـــي بقوله "إنني قوم بمثل هذه الرحلة مرة كل سنة، منذ أكثر من عشـــرين عاما، ومعنى هذا أنني تعرفت على ما يفوق

الخمسة آلاف سائح، وأنت واحد منهم.. معذرة لا أتذكرك". وواصل طريقه خارج الفندق.

صمتت كأنني أخرس، ولم يعد لدي ما أقوله، واكتفيت بمواصلة استحضار صورة هوسمان وهو يحمل الصليب الخشبي على ظهره ويدور حول الدير كالمجنون دون أن يتعب.

جئت للاستمتاع بمناظر الاسكرام عند الشروق وعند الغروب، والاستئناس بوحدة روحية غريبة في دير الأب شارل دي فوكو. وأما الناس داخل الفندق فلا حديث لهم إلا الاعترافات والملايين التي سيجنيها المحظوظون من المعترفين.

ربما كنت منهم.

ماذا أقول وقد دونت كل ما عندي في هذا المخطوط الذي يحفظ سيرة عائلة مالو.

لن أعترف منذ اليوم.

أنطوان قال كلمته وسيمضي.. بقي أن يعترف الآخرون.

سيعترفون، وسأكون شاهدا عليهم.

منشورات تالـــة ـ الأبيار , الجزائر

ثالة
THALA EDITIONS